لاو تسي

كتاب الطاو

ترجمة محسن فرجاني



كتاب الطاو

تأليف
لاو تسي

ترجمة
محسن فرجاني



كتاب الطاو

道德经

لاو تسي

Lao Tse

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٩ ٣٤٧٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الصينية في تاريخ غير معروف.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠٠٥.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

المحتويات

كلمة الطبعة الإلكترونية من ترجمة الكلاسيكيات الصينية إلى العربية

يُسعدني ويُشرِّفني أن تَصدر الطبعة الإلكترونية من عيون التراث الصيني، التي ترجمتُها إلى العربية، عن مؤسسة هنداوي للنشر؛ لأسبابٍ كثيرة، منها أن اللغة العربية كانت وسيطًا للتعريف بالصين على مستوًى عالمي، في فترةٍ مهمة من تاريخ الحضارة العربية، إبَّان عصورٍ مضت، وقد جاء الوقت المناسب لمُواصلة هذا الدور في عصرٍ حاضر، خصوصًا عن طريق مؤسسةٍ تُتيح تقديم النصوص المترجمة إلى القارئ باللغة العربية عبر وسيلةٍ إلكترونية أكثر حداثةً وانتشارًا؛ ومنها أيضًا أن المطبعة العربية الورقية، على مدى تاريخها، كانت مُخلِصة لجهود الكتابة عن الصين، في مدونات الرحَّالة والجغرافيين، لكنها تأخرت طويلًا في الترجمة عن الصين، وقد حانت فرصةُ تَدارُك ما فاتها، عبر وسيلتَين متوازيتَين، هما: تلبية حاجة المكتبة العربية إلى هذه الترجمة التي تَركَّزت على مصادر الفكر والإبداع الصيني القديم، وتَجاوُز حدود النشر الورقي بالتطور إلى آفاقٍ إلكترونية، وصولًا إلى ساحة اطِّلاعٍ أكبر وتعويضًا عمَّا فات المكتبةَ العربيةَ ترجمتُه من الكلاسيكيات الصينية. وفي تقديري أن قراءة مصادر الفكر الصيني في مدارسه الأساسية؛ الكونفوشية والطاوية والموهية والتشريعية ... إلخ، يمكن أن تُفيد، على نحوٍ ما، في التعريف بالشخصية الثقافية والحضارية للصين، وفي دعم جسور الاتصال التاريخي معها، فضلًا عن شيءٍ آخَر أظنُّه من ضمن واجبات أو مسئوليات النشاط الترجمي في الحضارات العريقة، ومنها مصر، وهو الحفاظ على الذاكرة الثقافية للحضارات الإنسانية الكبرى، وهو مجهود يتجاوز حدودَ أي فردٍ مهما حاول ومهما ادَّعى من إجادةٍ أو إتقانٍ في أدوات النقل بواسطة الترجمة، وبالمناسبة فربما يلزم هنا التنويه، أو الاعتراف، بأن ما قمتُ به من ترجمةٍ

لأهم كتب التراث الصيني، مثل: كتاب الحوار، والطاو، وسياسات الدول المتحاربة، وكتاب الأغاني (أو الشعر القديم)، وفن الحرب، وغيرها؛ كان يهدف إلى تعريف القارئ العام بمحتوى هذه النصوص، وذلك حين تَبنَّت صحيفة «أخبار الأدب» (دار أخبار اليوم) هذا المشروعَ ودعمَته، منذ اللحظة الأولى؛ ومن هنا فقد رُوعي في مستوى الترجمة البساطةَ والوضوح والسهولة، قدر الإمكان، دون الغوص فيما تستوجبه ضروراتُ النقل الأكاديمي المتخصِّص، أو التحقيقُ العلمي الدقيق لنصوصٍ شكَّلت الخصائصَ الذهنية لمنطقةٍ ممتدة في شرق آسيا، أوسع كثيرًا من حدود الصين الجغرافية، لتشمل اليابان وكوريا وفيتنام، بل ربما ما هو أبعد من ذلك. ولعلَّ هذا هو الدافع الأساسي الذي شجَّعني على التعاون مع مؤسسة هنداوي؛ ذلك أن مساحة النشر الإلكتروني بمداها الواسع وآفاقها الرحيبة، يمكن أن تُسهِم في تحقيق الهدف الأصلي لترجمة هذه النصوص. مع تحياتي وتقديري للقارئ وللمؤسسة، معًا!

محسن فرجاني
القاهرة، في يناير ٢٠٢٢

مقدمة المترجم

لم يكُن في الأرشيف الحكومي التابع لبلاط مملكة «تشو» (القرن الحادي عشر–٢٢١ق.م.) مَن يتقن أصول المراسم، ويفهم أُسس العلاقات العامة مثل لاو تان (أو «لاو تسي»، أو لاو تسو، حسب الترجمات الصوتية المختلفة لاسم هذا الفيلسوف) وقديمًا قالت عنه أشهر مدونة في التاريخ الصيني «سجلات تاريخية» على يد كاتبها المؤرخ «سيما شان»: إن لاو تان هذا هو أحد مواطني مملكة تشو، وإنه عاش إبَّان القرن الرابع قبل الميلاد، ولم يكن كاهنًا ولا فيلسوفًا، بل مجرَّد موظف أرشيف إمبراطوري، قصده الباحثون والدارسون ليتعلموا على يدَيه أصول المراسم والمعاملات، وكان المحتوى الفكري لهذه الأصول — يومئذٍ — جزءًا لا يتجزأ من الميراث الفكري المقدس عند الصينيين.

وقيل إن هذا الموظف البسيط هو أبرع وأفقه رجل في الإمبراطورية كلها فيما يتعلَّق بخبايا وأسرار ذلك الجانب من الشئون الرسمية، حتى إن كونفوشيوس نفسه، وهو فيلسوف الأخلاق وراهب الكهنوت الملكي، راح يسأل الجميع عن الطريق الذي يوصله إلى لاو تان، ثم إنه سافر إليه طلبًا للعلم. هكذا ورد الخبر في غير قليل من المصادر القديمة، غير أن هناك مَن يعترض على صحة هذه الواقعة، وسأعود إلى هذه النقطة فيما بعد.

لم يُعهد على لاو تان أنه بخل على أحدٍ بعلمه، لكنه وهو ابن زمان متقلِّب وأحوال مضطربة، من حروب وفتن ومؤامرات في كلِّ مكان، فقد ثقلت عليه وطأة الأيام، فتشوَّش يقينُه بالمُثُل الكونفوشية السائدة، وكفر بكلِّ ما كان يجيده من مراسم وأصول معاملات ملكية، وهو في هذا لا يختلف عن كثيرٍ ممَّن عاشوا في الفترة التي تُعرف في التاريخ الصيني القديم بزمن الربيع والخريف (٧٧٠–٤٧٦ق.م.) وهي الفترة التي شهدت ازدهار حركة التأليف الفلسفي في الصين القديمة مثلما اشتهرت الفترة التالية لها والتي تُسمَّى بزمن الممالك المتحاربة (٤٧٥–٢٢١ق.م.) بنشاط محموم في إنتاج أشهَر المؤلفات، بل الموسوعات

الاستراتيجية التي ضمَّت أعمالًا حول فنون الحرب والقتال والمناورات والخطط والتحليلات السياسية والاستراتيجية.

ومَن يُطالع تلك المؤلفات يلاحظ أن رصيد الفكر الفلسفي فيها أعمق من الصياغة النوعية لها بصفتها كتبًا استراتيجية متخصِّصة، ذلك واضح مثلًا في واحد من أشهر الكتب التي يَرِد ذكرها باستمرار وعلى نطاق عالمي تقريبًا «كتاب فن الحرب» للاستراتيجي الشهير سونزي، حيث يظهر بوضوح تأثير الفكر الطاوي، ولا يقتصر هذا التأثير على «سونزي» أبي الاستراتيجية الصينية قديمًا وحديثًا، بل يمتد ليصل إلى خليفتَيه الكبيرين «ووتشي»، و«سونبين» اللذين قاما بتطوير المحتوى النظري الذي قدَّمه أستاذهما، حتى لقد استطاع سونبين وهو الأقرب فكريًّا وروحيًّا إلى سونزي أن يطوِّر النظرية ليقترب من دراسة طبيعة الأصول الاجتماعية للحرب، ونجد تأثير الطاوية عنده غلَّابًا عندما يجعل من التعبئة الشعبية على نطاق واسع أكبر سند للاستعداد القتالي؛ ذلك أن اتحاد «طاو» الشعب بالقيادة كفيل بأن يُنحِّي مخاوف الموت والفناء جانبًا، ليفتح طريقًا صاعدًا للنصر ... إلخ.

وبالمناسبة، فقد حُسم الجدل المُحتدِم حول صحة الافتراض القائل بأن سونزي ليس هو المؤلف الوحيد لكتاب فن الحرب، وأن «سونبين» هو الرجل الثاني الذي يستحق الفضل في وضع الأسس الفكرية لذلك الكتاب الشهير؛ فقد كشفت البحوث الأثرية عام ١٩٧٣م عن نسخة أصلية من كتاب «فن الحرب عند سونبين»، وهو كتاب آخَر مُختلِف عن الكتاب الذي وضعه سونزي، لكنه يطرح تصوُّرات أكثر تطوُّرًا ونضجًا ممَّا يطرحه كتاب فن الحرب، لكنه عمومًا يُعَد تتمة مكملة للأسس النظرية للكتاب الأول، لكن تلك، على أية حال، مسألة أخرى، وإنما يهمني في هذا المجال إبراز مدى التأثير الهائل للطاوية على الاتجاهات الفكرية التي سادت في فترة من أغزر الفترات التاريخية إنتاجًا وأشدها توهجًا، وهي الفترة ما بين نهاية عصر الربيع والخريف، وبداية عصر الدول المتحاربة، حتى إن المؤرخين يُطلقون على مجمل الحركة الفكرية في هذه الحقبة اسم «المدارس الفلسفية المائة» (أو حرفيًّا = الأُسر المائة) ولعل دلالة التسمية تتضح بالتصوُّر الطبيعي الذي يقود إلى تمثل العلاقات الأسرية داخل بيت كبير، الريادة فيه للأب الكونفوشي/البطريكي والأم (الطاوية/الأنثوية)، فكل الأفكار تُرَد إلى أحد هذين القسمين بالضرورة، وعلى وجه الإجمال. وكل الاجتهادات مُجرَّد رؤًى تنبع من — أو تقود في آخِر المطاف — إلى الجذر النظري لهذا القسم أو ذاك، بالأصل والأساس.

وليس في الأمر أدنى مبالغة، فما كاد لواء السيادة ينعقد للكونفوشية، حتى جاءت الفلسفة «الموهية» بتلوين مذهبي جديد، يختلف في بعض التفاصيل لكنه يتفق في المبدأ الجذري مع الأصل الكونفوشي، لكنَّ إضافةً أخرى نوعية كانت مطلوبة مع تغيُّر الظروف، فجاءت أفكار «يانغ تشو» لتُضيف وتمجِّد المكانة الإنسانية وقيمة الوجود الفردي، ثم تتطرف فتسعى لإزالة قدر كبير من الأساس الكونفوشي المتين، ثم كانت الوثبة أكثر جرأةً، فتدخل الطاوية من النافذة التي تجدَّد هواؤها مع أفكار «يانغ تشو»، ويتصارع أفراد الأسرة ويشتبك الجميع ويحتدم الجدل، فيأتي القانونيون (أصحاب الاتجاه التشريعي)، ويشكِّلون اتجاهًا فلسفيًّا جديدًا، جذورهم نبتت من الغرس الطاوي، لكنهم أبناء الكونفوشية الأمجاد المهذبون الأفاضل، يُصلحون ما تهدَّم من البناء الكونفوشي، ويتصالحون مع الطاوية فيما لم يكُن ممكنًا التصالح فيه بحالٍ، والحق أن الطاوية كانت منذ يومها الأول، ميلادًا ثوريًّا مغايرًا للمعهود في الفكر الصيني، وربما لهذا ظلَّت الطاوية وقودًا يمد طاقة الانقلابات الفكرية والفنية والثقافية في مسيرة الثقافة الصينية، حتى وقتنا الحالي!

هي جاءت، كمجيء الأنثى إلى دنيا الحياة، إضافةً وتطوُّرًا مبدعًا، ثوريًّا وجريئًا، واعدًا بالخلود والبقاء، لكن يبقى أن الأساس الذي انطلقت منه الطاوية كان مغايرًا لما قامت عليه الكونفوشية، حيث كان مرتكز البناء الكونفوشي يقوم على المجتمع الإنساني وعلاقات أفراده بعضهم ببعض: الأب وأبنائه، الملك ورعاياه، الأخ وإخوته، الزوج وزوجه ... إلخ. ثم جاءت الطاوية لتنقل مركز الاهتمام إلى كيانٍ آخَر غير مرئيٍّ، ثم إن هذا الكيان لم يكُن قائمًا فوق الأرض، ولا حتى في السماء، بل في غيب الوجود، حيث لا أرض ولا سماء، فالطاو كيان يصعب تعريفه؛ إذ لا مكان له ولا زمان، فهو سابق على الزمن وموجود قبل بدء الوجود، قبل الحياة، قبل وبعد البعد، ثم إنه ليس الإله ولا الآلهة؛ لأنه قبل كل الكل ... إلخ.

ولم تكُن مثل هذه التصوُّرات مما يمكن أن يخطر على بالِ الفكر الصيني الذي لم يخرج عن حيِّز الوجود الإنساني، فلم يحدث أن حلَّقَت الفلسفة الصينية خارج حدود البشر، فلم تتطرَّق إلى ما وراء الطبيعة، ولم تبحث عن ثوابت خارج إطار العلاقات الإنسانية، وهذا فرق جوهري بين الفلسفة الصينية والفلسفة الغربية.

وكان أنْ صُدِمَتِ الكونفوشية صدمةً لم تَفِق منها إلَّا بعد زمان طويل، وتحديدًا عندما أطلَّت البوابة برأسها في القرن الأول الميلادي تقريبًا. وكانت الأفكار الطاوية الجريئة قد تحوَّلَت إلى ظاهرة ثقافية بارزة، ثم إلى بناء فكري راسخ أصبح في مقدوره مواجهة البوذية

الوافدة التي هدَّدَت أركان البيت الصيني التقليدي، الذي كان يتصارع ويتجادل أفراده فيما بينهم، كان الصراع الفكري ينشد الانسجام والوحدة وتصفية الشقاق مثلما يدعم الوحدة الجغرافية لكل الصين، فليس غريبًا أن الطاوية توقفت عن التطوُّر بعد تحقيق الوحدة الصينية في عهد أسرة يوان (١٢٧٩–١٣٦٨م)، توقفت كفلسفة برهة من الوقت، لكنها استمرَّت إبداعًا في فن الحرب والطب والفلك والكيمياء.

لكن الجدل الداخلي بين أفراد البيت الصيني جزء من الجو النفسي الذي يقوم على الحوار والحركة بين متناقضات، ولئن كانت الطاوية قد تطرَّقت إلى مبحث الوجود، وأطالت النظر فيما وراء الحجب — وهذا ذنب لا يُغتَفر! — فقد عادت تهتم بشئون الإنسان وحياته على الأرض، لكن الأهم من ذلك أنها حافظت على حركة الجدل المبدع بين كل الأطراف، وأضفت حيويةً بالغةً على دائرة الحوار بين الذكوري والأنثوي – الأنا والآخر – الضعف والقوة – الحياة (قوةً وضعفًا).

وهي مثل كل فلسفات الصين لم تتطرَّق إلى التأمُّل في الموت، فتلك كلمة مُحرَّمة على كلِّ لسانٍ أبد الدهر.

وربما كان السبب في العزلة المتبادلة بين الحضارتين العريقتين المصرية والصينية، أن إحداهما انشغلت بالموت طول حياتها حتى توارت تحت التراب، الأخرى تشبَّثَت بالحياة حتى انعزلت في كهف صاخب بالحياة، ولعلَّ نسبة التعداد السكاني المذهل هناك تمثل — نفسيًّا — ميكانيزم مقاومة شبح الموت بالإنكار، مثلما أن شظف العيش وخشونة الحياة المصرية تقليديًّا عبر التاريخ يُعَد مقاومة سلبية لخطر الانغماس الزائد في ترف الحياة، والاستطراد الطبيعي والمنطقي من هذه النقطة، هو أن تصبح الزيادة السكانية في الصين وقودًا متجدِّدًا لصنع طاقة الحياة تحت السماء، بينما الزيادة السكانية نفسها في وادي النيل تُمثِّل عبئًا (نفسيًّا) ثقيلًا يرزح فوق أنفاس الخلود، تحت التراب، بل تتضح المفارقة في أن يكون طب الأعشاب هو الاختراع الطاوي الباقي للبشرية، مثلما أبدعت مصر الفرعونية في طب التحنيط قناع الحياة.

على كلِّ حال، فلم تحظَ الطاوية بمكانتها كديانة مقدَّسة إلا عندما تغلغلت البوذية في الصين أكثر من اللازم، ورغم أن هذا التغلغل احتاج لسنواتٍ طوال لكي يثبِّت أقدامه نهائيًّا في قلب الحضارة الصينية (البوذية دخلت على ثلاث مراحل، كل مرحلة امتدت لعشرات السنين) إلا أن الطاوية تساندت، لأول مرة، مع الرفيق الكونفوشي في وجه البوذية الوافدة. وكان هذا، في حدِّ ذاته، تأكيدًا لوحدة البيت الفكري الصيني، برغم صراعاته الداخلية.

وسواء ظلَّت البوذية بعد دخولها الصين نقية طاهرة أم لحقتها ضرورات التغيير، فلا شك أن بعثًا جديدًا بملامح صينية كان ينتظرها على يد الأب الكونفوشي القاسي، وإنْ أشفق عليها أحيانًا القلب الطاوي الرحيم، وقد بلغت قسوة اليد الكونفوشية الغليظة أنها انتزعتها انتزاعًا من موطنها الأصلي في الهند، حتى لقد اجتُثَّت الأصول من جذورها، (وإن كان المسلمون قد أسهموا بدورٍ بارزٍ في هذا الاستئصال الجذري لها من الهند)، لكن لتعود شبه القارة الهندية أكثر وفاءً وإخلاصًا لميراثها الهندوسي القديم!

لم يكن صراع «الأبيات المائة» أو «المدارس الفكرية المائة» في حقيقته سوى تحريك ديناميكي لدورة الحياة الصينية، ما دامت الحياة هي الشغل الشاغل، وما دامت الحياة لا تخلو من متناقضات، وما دامت هذه المتناقضات نواتج طبيعية لإيقاع العلاقات الداخلية، في إطار البيت الصيني الكبير.

وبهذا المعنى نستطيع أن نفهم الكثير مما تقوله أبيات أحد القصائد الواردة في كتاب «الشعر الصيني القديم»، أحد الكتب المقدسة الخمسة، تقول الأبيات:

«ليس في الدنيا كلها رجال كإخوتك،
الذين من أمك وأبيك،
يتعاركون معًا وراء أسوار البيوت،
لكنهم عصبةٌ واحدةٌ في وجه الغريب،
بينما أعز أصدقائك،
مهما كانوا قبائل وعشائر،
فلن يحاربوا حربك،
ولن يدحروا لك عدوك ...»

ونمضي مع الفيلسوف لاو تسو لنُكمل معه باقي الطريق، مع العلم بأن لقب «لاو تسو» هذا ليس اسم علم؛ فلا أحد يعرف اسمه حتى اليوم، لكن هذا مجرد لقب يعني في الصينية القديمة «الشيخ الأكبر»، «المعلم الحكيم». وتقول كتب التاريخ إنه الْتَقى بكونفوشيوس، أو إن هذا الأخير هو الذي ذهب إليه ليتعلَّم منه أصول المراسم، والقصة ليست مُوثَّقة بشكلٍ كافٍ، مما دعا أحد المحققين إلى القول بأن هذه الرواية مُخْتلَقة كلها ولا أساس لها من الصحة، ولا تخفى الدوافع الكونفوشية الخبيئة (لا نقول الخبيثة) وراءها، تلك التي جعلت من كونفوشيوس رجلًا متواضعًا يذهب في طلب العلم، ويتحمَّل التعليقات القاسية،

بل الجارحة، التي راح يكيلها له لاو تسو، والأكثر من ذلك، أن التلفيق الكونفوشي يجعل من لاو تسو، وهو فيلسوف الطاوية الذي يمقت كلَّ ما له صلة بكونفوشيوس، يصبح العليم ببواطن المراسم والمعاملات والأخلاق بمعناها الكونفوشي وبوصفها الركن الأساسي في البناء الفلسفي للكونفوشية، وربما وردت القصة في زمن تصالحت فيه الفلسفتان الرئيسيتان، لكن يبقى أن اعترض لاو تسو على الكونفوشية، كان يجد تبريره في أن تمجيد الإنسان لدى الكونفوشيين بلغ شأوًا بعيدًا تحوَّل معه الاحترام إلى تبجيل ثم إلى تقديس، حتى صارت علامة الخلق الرفيع هي عبادة جلالة الإمبراطور نفسه، بوصفه سيد المماليك جميعًا؛ ومن هنا نلاحظ أن استخدام الطاوية لمفهوم الأخلاق يختلف اختلافًا هائلًا عن استخدام الكونفوش الرسمي لها؛ فبينما الأخلاق التي قوامها العدل والحب والرحمة والود والرفق في العلاقات الإنسانية بين الأب وأولاده، الحاكم والمحكوم، الزوج والزوجة، الأخ الأكبر والأصغر، هي أساس القيمة الأخلاقية عند الكونفوشيين، نجد أن دلالة الأخلاق عند الطاويين تختلف جذريًّا؛ إذ هي تقوم على مبدأ التواضع والزهد وإخضاع النفس للقبول بأخسِّ المراتب والحظوظ، والعمل وفق النمط الطبيعي للأشياء، (وذلك الذي اشتهر في الصياغة الطاوية باسم «وو وي» Wu Wei، بمعنى «اللافعل» أو «مسايرة الطبيعة»، ويكاد يلمس أهداب المعنى في مصطلح «التوكل» عند متصوفة الإسلام، لكن الفارق شديد جدًّا!) بمعنى تنزيه الإرادة الإنسانية عن إخضاع المنظومة الطبيعية للأشياء للعمل ضد قانونها قسرًا وإجبارًا جلبًا للنفع أو مسايرة لهوى النفس، فلئن كانت أخلاق الكونفوشية تتحدَّد في إطار العلاقات بين أفراد المجتمع، بتغليب اعتبارات التبجيل والتوقير وحفظ النظام الاجتماعي، فإن أخلاق الطاويين تتحقَّق داخل إطار كوني بين كل البشر من جانب، والطبيعة من جانب آخَر، وقوامها فهم طبائع الأشياء والعمل بمقتضى قانونها الطبيعي، من هنا نفهم سر اهتمام الطاوية بالملاحظة التجريبية والتأمل في خصائص الأشياء، والتطبيق العملي للنظريات (كانت الطاوية تدعو الدارسين إلى العمل اليدوي الأقرب إلى تجارب المعمل، على عكس الكونفوشية التي احتقرت التطبيقات)، لكن العلم في الطاوية لا يعني إعمال العقل واختبار الفروض واستنباط القوانين وضبط المناهج، لكنه استبطان تأمُّلي لأغوار النفس التي تنزَّلَت فيها أسرار الكون؛ فالعلم باطني، لا سبيل لاستكناه مغزاه إلا بالتأمُّل العميق وإغلاق كل الحواس (... يستطيع الإنسان أن يعرف كلَّ شيء دون أن يغادر عتبة داره ...) فالأخلاق الحقة هي العلم بأسرار الباطن. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الكثير من ترجمات الطاو في مختلف اللغات، قامت بنقل المعنى حرفيًّا في عنوان الكتاب باسم «كتاب الأخلاق»، دون تنويه إلى مغزى المصطلح الطاوي حتى لا يلتبس المعنى على

القارئ، خاصة أن الطاويين كانوا يرون في الأخلاق الكونفوشية نفاقًا اجتماعيًّا رخيصًا، أما الطاوي الحق، فلئن كان يتواضع ويتذلَّل، فليس أمام سطوة الإمبراطور، وليس عن نفاقٍ، لكن معرفة قدر النفس أمام سلطان الطبيعة ونزولًا على قانونها النافذ في كلِّ مكانٍ وزمان.

فرق هائل إذَن بين الطاوية والكونفوشية، لكنهما بقيتا في ساحة الفكر الفلسفي الصيني، كفرسَي رهان، تتسابقان وتختلفان، لكن لتتشبَّث كلٌّ منهما بموقعها، وتحفظ لرفيقتها (اللدود) مسارها على ساحة النزال، (فترات التفاهم كانت قصيرة جدًّا!) لكن هذا لا يمنع من أن الطاوية لاقت المصير نفسه الذي سبقتها إليه الكونفوشية، وسقطت فيما حذَّرت هي منه، فما إنْ شُيِّدت المعابد الطاوية، وأقبل عليها العامة والنبلاء في عصر الممالك الثلاثة، القرن الثالث الميلادي، حتى اتخذها الملوك تميمة لجلب السعادة وإكسيرًا سحريًّا لإطالة العمر والتمتُّع بمباهج الحياة، وصارت كيمياء السعادة حِرفة النبلاء والمتنفذين، ووجد الأمراء في كتب الطاوية طرائف سحرية تحقِّق كلَّ لذة، وتطيل أَمَد كل متعة، ومَن يُطالع أحد أهم المؤلفات الجنسية (الإيروسية) الصينية في تاريخ العالم، (كتاب سوني جين)، يلحظ تأثير الطاوية في كل كلمة، بل في كل حرف منه، على مدى آلاف الليالي الطويلة المسهدة، التي يقضيها جلالة الإمبراطور «هواندي» في صحبة طبيبته الشخصية، الجميلة الفاتنة «سوني»، يسألها في مسامراتهما الليلية عن أسرار الحياة الجنسية وكيفية إطالة أمد اللذة ... و... إلخ. وإذَن، فقد دخلت الطاوية القصور، وسيلة لمطالعة بروج الحظ، ووصفات علاجية وإكسير حياة متجدِّدة، وتحوَّلت خارج القصور إلى خِضَمٍّ هائل من الأفكار السحرية والطلاسم الشامانية الغامضة، وتبخَّرَت دعوتها الثورية وسط ضبابية التمائم، وطلسمات الطقوس الشيطانية، لتسقط في مهاوي الشعوذة والدجل.

كانت الطاوية في أول الأمر تجمع في تعاليمها بين رياضة التأمل الروحي والفلسفي واحترام التقاليد والأعراف السائدة، ثم أدرك لاو تسو تحلُّل نظام المراسم الكونفوشي، ولاحظ تردِّي الأحوال إبَّان فترة الربيع والخريف، فندَّد بقواعد المراسم الاجتماعية، وبالقوانين السائدة، لكن أمام المد الكونفوشي الطاغي، لم يكُن يملك لاو تسو أي حيلة لأن يفعل أي شيء، وانعكس ذلك في الأساس النظري للطاوية، حيث أصبح المبدأ الأساسي لها هو «اللافعل»، فأحسنُ شيءٍ يعمله المرء هو «اللاعمل»، (مبدأ الـ «وو وي» wu wei الشهير)، وأحسن طريقة للحكم على الأشياء هي «اللاحكم»، وليس في هذا سلبية، بل العكس، فالعزم على اللافعل أو اللاعمل أو اللاحكم هو أيضًا، بحدِّ ذاته، نشاط إيجابي يقوم مقام الفعل نفسه.

ليس هناك تعريف محدد للطاو (الطريق ... ربما)، فهو كيان يصعب إدراكه فضلًا عن تعريفه، لكن التقدير السائد لدى الباحثين والمتخصصين بالفلسفة الصينية، يُشير إلى أن الطاوية فلسفة صوفية، بالمعنى الطبيعي، وليس بالمعنى الديني؛ فلئن كان متصوفة الإسلام والمسيحية يبحثون عن الاتحاد الجمعي بروح الله، فإن التصوف الطاوي يبحث عن الاتحاد الجمعي بالطبيعة المطلقة، وقد زعم البعض أن الطاوية كانت سببًا في إثارة الحس التجريبي، مما أسهم في تقدُّم العلوم في الصين، (ج. نيدهام، وآخرون)، لكنه زَعْم يحتاج للمراجعة، لأن التطبيقات العلمية الصينية استندت إلى ظروف تطور تاريخية مركبة، ربما كانت الطاوية أحد عناصرها، على الرغم من أن لاو تسو كان يقول إن الناس مولودون بمعرفة باطنية لا شأن لها بتجربة الحواس، ولا بأيِّ نوعٍ من التطبيق الاجتماعي أو العلمي، فكان يدعو لإغلاق كل قنوات الحس، وقطع كل علاقة مع المجتمع الخارجي، وإلغاء قيمة التفكير الذهني الواعي؛ ذلك أن أية معرفة أصلية حقيقية، نافذة إلى جوهر طبيعة الأشياء، يمكن تحقيقها فقط بواسطة الحدس الصوفي، وأي محاولة لإعمال الذهن ليست إلا انتهاكًا لقدس أقداس الطاو (... في ذلك شيء قريب ممَّا يقوله محيي الدين بن عربي: «لولا الأسماء لبرز المسمَّى ... لولا الحظوظ لهلكت المراتب ... لولا الهوية لظهرت الإنية ... لولا الفهم لقويَ سلطان العلم ... إلخ»).

أما كتاب الطاو، فهو النسخة الجامعة لأقوال لاو تسو، فيلسوف الطاوية، وهو كتاب مركَّب من جزأين: (١) كتاب الطاو (طاوجين). (٢) كتاب الأخلاق (داجين)، ثم إن الاكتشافات الأثرية في النصف الثاني من القرن العشرين (١٩٧٣م)، كشفت عن مخطوطة لكتاب الطاو، مختلفة الترتيب عما هو سائد؛ حيث يأتي باب الأخلاق في الصدارة. ويقول الباحثون إن النُّسَخ المكتشفة هي الأقرب للنص الأصلي للكتاب.

لكن مسألة النص الأصلي للكتاب هذه، يجب أن تُؤخَذ بحذرٍ بالغٍ عند الحديث عن المؤلفات الكلاسيكية الصينية. وما سأقوله هنا، لا أملك له سندًا مرجعيًّا موثقًا، لكنه شيء من جملة تقديراتي حسبما توفر لي من اطلاع ومناقشات مع المتخصصين في الدراسات الصينية القديمة، ذلك أن طريقة حفظ النصوص قديمًا، كانت تضم شرائح البامبو المدوَّن عليها المتن طوليًّا، جنبًا إلى جنب في مجموعات تربط كل حزمة منها بفتائل أو أشرطة حريرية رقيقة، فإذا حان وقت تجميع التراث من ركام تلك الأحزمة، كانت بعض الشرائح توجد بحالةٍ متهرئة، قد انمحت مدوناتها أو تآكلَ بعضها، وربما تحلَّلَت الأشرطة الحريرية واختلطت أعواد البامبو، وتداخلت المدونات أحدها في الآخر فضاع السند وتاهت القرائن،

وهكذا، فكثيرًا ما تم تجميع أقوال الفلاسفة بطريقة عشوائية، لم تكن تجد ما تستند إليه سوى عبارة «قال فلان»، وهي طريقة سمحت لحكايات مختلفة وسجلات متباينة أن تقتحم متن النص الواحد؛ فمن ثَمَّ حدث الخلط والزيادة والحذف والتكرار، بل نُسبت أقوال لغير قائلها، في كثيرٍ من الأحيان. وباختصار، فلا يمكن الجزم بصحة نسب النص الأصلي للكتاب نفسه للفيلسوف لاو تسو، خاصة أن تاريخ تدوينه غير معلوم بدقة؛ فهناك مَن يقول إنه مدوَّن في زمن كونفوشيوس، وآخَر يقول إن تجميعه تمَّ في القرن الثاني قبل الميلاد، والكتاب في مجموعه، غير جيد الترتيب، وكثيرًا ما تأتي الانتقالات بين الأبواب صادمة مزعجة في غير ترتيب منطقي، وقد تتبنى بعض الفصول الشيء ونقيضه معًا، وليس لذلك تفسير سوى ما يقوله البعض، من أن ضرورة الالتزام بالتلوينات الصوتية لنص مسجوع، اقتضت استخدامات نحوية مختلفة وتراكيب بنائية غير عادية، وأيًّا ما كان، ففي الجزء الأخير من عصر الدولة المتحاربة، وهي فترة تجميع مدونات التراث الطاوي، لم يكن يُعتَد كثيرًا بدقة الإسناد لمفكر محدد أو قائل معيَّن، ولا تشذ عن ذلك أعمال لاو تسو، وهكذا، فنسبة كتاب الطاو الحالي إلى قائله مسألة تقاليد وأعراف ... لا أكثر!

وبخصوص ترجمة الكتاب، فهو من أغزر المدونات الصينية ترجمةً وأكثرها شهرةً وانتشارًا خارج الصين، بجانب «محاورات كونفوشيوس» و«كتاب التغيرات». ثم إن هذه الثلاثية الصينية الكلاسيكية، هي أكثر المؤلفات تأثيرًا في الغرب المعاصر (أوربا وأمريكا).

ومثلًا، ففي الإنجليزية وحدها، أكثر من ثلاثين ترجمة للطاو، بينما لا تزيد ترجماته للعربية، في حدود معلوماتي، على ترجمتين اثنتين فقط، الأولى للسيد الأستاذ الدكتور عبد الغفار مكاوي، عن الترجمة الألمانية، والثانية للمفكر السوري الأستاذ هادي العلوي، عن الترجمة الفرنسية.

وكنت، في البداية، أعدُّ ندرة الاهتمام بترجمة الطاو إلى العربية نقصًا شائنًا وبغيضًا في جهود ترجمة التراث الصيني (الآسيوي عمومًا)، لكنني الآن وبعد تجربة الترجمة عن الصينية لهذا الكتاب، أعترف بأن الأمر ليس سهلًا كما كان يبدو لي أول مرة؛ فالعذر كل العذر لَمَن أحجم عن ترجمة الطاو!

الآن فقط عرفت لماذا كان بعض الذين ترجموا الطاو، حين ترجموه، قد طرحوا النص الأصلي جانبًا، وقاموا هم بصياغات جديدة من عندهم، وآخرون أعادوا ترتيب الفصول بشكلٍ مغايرٍ ... وما أكثر!

لهؤلاء وأولئك ألف عذر، فما أشق ترجمة الطاو!

هذا من حيث البدء بالترجمة أصلًا، أما ترجمته إلى العربية، فهي ما لم أكُن أتوقع أن تكون بهذه الصعوبة التي لمستها في كل كلمة وعبارة وجملة، الكتاب كله من القطع الصغير، صفحاته قليلة، عبارته موجزة جدًّا، (الترجمة العربية شيء آخر!) لكن جهد الترجمة المطلوب له يتجاوز ما يمكن أن يتخصص لموسوعة فلسفية كبيرة!

وكنت قد جمعت ثلاثة مخطوطات صينية، تدقيقًا للمعنى، وضبطًا للدلالة، لكني فوجئت أن لكلٍّ محقق شرحًا مختلفًا (متناقضًا ... أحيانًا!) فأحضرت نسخة مترجمة للإنجليزية لموازنة متغيرات الشروح الصينية، فكانت هي الأخرى أكثر تناقضًا، فذهبت أستطلع وجهة نظر الدارسين المتخصصين في الكلاسيكيات الصينية، (فأنا تخصصي الأصلي «علم اللغة») وطالعت بعض المراجعات النقدية الصينية لترجمات الطاو إلى اللغات الأجنبية، وعرفت أن رمزية النص تسمح بتأويلات كثيرة، وربما متناقضة (لا بأس!) لكن الشيء الذي كان يزعج بعض النقاد هناك، هو أن الكثير من الترجمات، في إطار حرصها على تقديم نصوص واضحة، مفهومة، سلكت في غير طريق الطاو؛ إذ العبرة في النص الأصلي أنه لا يضيء كل الطريق والإلغاز هنالك مطلوب، واستحضار الطلسمات قصد مقصود، ومشكلة معظم الترجمات أنها فضت كل المغاليق، (أو تصورت ذلك ممكنًا!) فأضاعت رمزية الطاو، وسطحت المتن بتقريرية فجَّة، لم تشفع لها صياغاتها الشاعرية التي استلهمت منطق ولغة وروح عصر حديث.

ثم إن لغة حديثه شوهتها بنائية «دي سوسير»، وتوليدية «تشومسكي»، وقفزت فوقها سيميوطيقية «تشارلز بيرس» وكذبتها تفسيرات «فرويد» وتحليلات «كارل يونج»، وأنكرتها حاسبات بيل جيتس وبرمجياته، لن تفي بمتطلبات نص صيني قديم.

وتذكرت أن المتن ذو طبيعة صوفية، وربما كان مناسبًا، استلهام صياغات الأدب الصوفي، بإشاراته ورمزيته المعهودة في الكتابات العربية التراثية وقد كان، لكني فقط أريد توضيح نقطة في غاية الأهمية، ذلك أني استلهمت لغة المتصوفة في الرمز والمجاز، بعيدًا عن دلالات الاصطلاح الغني التي تحمل مغزًى خاصًّا في فلسفة الإشراق فذلك ما لم أقصد إليه، ولئن استحضرت الترجمة أجواء التراث الصوفي، فلا بأس، فما كانت لغة المتصوفة سوى الرموز والإشارات (هل صرَّح الصوفيون بشيء؟!) وعمومًا، فهذه الترجمة مجرد تصور ممكن من وجهة نظر مترجم عربي للنص الصيني، وجد نفسه مطالبًا عند الترجمة بألا يفسر وألا يشغل نفسه بكتابة شيء مفهوم، وألا يصنع نصًّا موازيًا، بل ينقل فقط، كلما كان النقل ممكنًا، على أن يحفظ للنص الأصلي رمزية دلالته، بكل ما فيها من غموضٍ وإبهامٍ!

وكان تقديري، في بدء الترجمة، أن أنقل بعد الطاو كتاب «جوانغ تسي»، وهو الكتاب الثاني الشهير في الفلسفة الطاوية، والذي يرد غالبًا مع كتاب الطاو في نسخة واحدة، لكني عدلت عن ذلك، فربما أستطيع يومًا ما أن أكمل تلك المهمة (الشاقة)، أو أن يقوم بها غيري، والساحة الآن لا تخلو ممَّن يترجمون عن الصينية، هم يقومون بذلك في صمت ودأب وإصرار.

لا أستطيع الزعم بأني ترجمت الطاو على النحو الذي كنت أتمناه، لكني — على أية حال — حاولت نقله في نصٍّ عربيٍّ يوازي الأصل وإن لم يحاكه، يصوره وإن لم يساوه، فلذلك تجد عبارات كثيرة بين الأقواس تقتحم المتن، وتقطع السرد:

(١) إما لتضيف من خارج المتن ما يبرز المعنى، وفي هذه الحالة، تبدأ العبارة بين القوسين المربعين بثلاث نقاط [...–]، أو ...

(٢) تنقل المعنى الحرفي مثلما يرد في النص، وهنا تأتي العبارة داخل القوسين المربعين مسبوقة بعلامة «=»، وهكذا [=–]، أو ...

(٣) تلفت انتباه القارئ إلى وجود فجوة بين العبارات أو استطراد غير منطقي في تتابع الفقرات، وهنا، اكتفيت بعلامة القوسين، داخلهما ثلاث نقاط، هكذا [...].

وبعد، فلا يمكن أن تأتي موضوعات الترجمة؛ أي ترجمة كانت، خلوًا من غاية تطمح إليها، وأُفق تتطلَّع نحوه وقاعدة تنطلق منها، لا يمكن أن تنهض على اختيار عشوائي، بغير جدل مع الحاضر واشتباك مع تفاصيل الساعة الراهنة، في إطار الزمان والمكان، نحن نتحدث عن الواقع الذي أنتج النص، لكن يبقى في وعينا واقع آخر ننطلق منه، وزمان نتحدث بلسانه وأفق يشد طموحنا، والترجمة تُعنى بلغة اليوم لا الأمس، بينما تضرب موعدًا مع قارئ الغد، أو في أحسن الأحوال، بعد الغد فاختيار اللغة يأتي، بالضرورة، متأخرًا عن الموعد بزمان معلوم؛ فمن ثَم تأتي الترجمة غالبًا عاجزة عن إلحاق الواقع بالمأمول، الحاضر بالمتخيل (التأليف يملك قدرات مذهلة!) وربما استطاعت الترجمة تجاوُز حدود هذا المأزق إذا تجاوبت مع قضايا العصر أو مدت أبصارها إلى أفق أكثر وعيًا وإبداعًا.

ولا أتصور أن ترجمة الطاو يمكن أن تتجاوز محنتها بهذا المعنى، (هل يمكن للطاو أن يجادل واقعًا ما، أو يشتبك مع قضايا الحاضر؟ لا أظن!) فلطالما سكنت أفكار الطاو كهوفًا أسطورية ألهمت خيال الشعراء، أو طرحت موضوعات مناسبة للتأمل في مبحث الثقافة الإنسانية القديمة، بوصفها مادة إثنولوجية ذات قيمة هائلة بما ترصد من ملامح

وعناصر وبناءات أسطورية شكَّلت جانبًا من وجه الثقافة الصينية، ورسمت مسارًا لتطور العقل في حقبة قديمة جدًّا من الزمان.

وفي الصين، أو خارجها، هناك مَن يؤمنون بأن موضوعات التراث الطاوي القديم تملك طاقة جبارة قادرة على التجاوب مع الحاضر، واللحاق بالمستقبل، ومثلًا، فقد قيل في فترة ما: إن الطاو يحوي أصول الفكر الجدلي، وأنه بالإمكان الْتِماس مصادر صينية أصيلة، تؤسِّس مفهومًا وطنيًّا لتطبيقات «ذات خصائص صينية»، وذلك في إطار المراجعة النقدية لمفاهيم الجدل بالمعنى المطروح في أدبيات اليسار في الفكر المعاصر، ثم قيل مرة أخرى: إن انحياز الطاو للرمز الأنثوي يُمثِّل دعمًا تراثيًّا لقضايا المرأة المعاصرة.

وقيل مؤخرًا، وفي زمن تشجيع وإطلاق الحافز الفردي في الاقتصاد والتجارة: إن الطاو يشتمل على الأصول الأولى للمبدأ الاقتصادي الشهير «دَعْه يعمل، دَعه يمر» ... laissez-faire ... إلخ.

ولا أريد أن أكون مزعجًا لَمن يتصورون أن حجم ما حقَّقَته الصين المعاصرة من إنجاز يرجع — أساسًا — لمرونة ذهنية وأصالة ثقافية استطاعت المزج بين التقليدي والعصري، خاصة أن اللافتة المُعلَّقة هناك تقول بأن التطبيق «ذو خصائص إقليمية» ولتقل اللافتة ما تشاء، فالثابت أن الصين أطلت على فجر العصر الحديث عبر النافذة الداروينية (كتاب دارون «حول أصل الأنواع» هو الذي أثار رغبة الصينين في التقدم وحرَّك أمانيهم باتجاه النمو والتطور، إبداعًا وتجديدًا لمقومات الحياة)، ثم إنها تقدمت على طريق البناء بخُطًى ماركسية، وهذه وتلك كلها مرادفات للتبدل والتطور ونبذ التخلف ... لا بأس ... لكن قيل أيضًا، وكان القول وقتئذٍ ملء الأسماع: «إن التخلف يكمن في مواريث الماضي ...» هكذا بملء الفم!

ولقد جاء على الصين حينٌ من الدهر، كان ينظر فيه إلى الأفكار الكونفوشية والطاوية بوصفها عقبات على طريق التقدم، ولا بد من إزالتها، وشبَّت نيران، واندلعت ألسنة لهب تلتهم صفحات، بل أرفف ومكتبات وقصور ومعابد، ولم يكن ذلك منذ زمنٍ بعيدٍ، بل منذ نحو ثلاثين سنة فقط!

الطاو مدونة تاريخية مكتوبة برموز، وعلامات الرمز الصيني القديم، فضلًا عن كونها نظامًا تقليديًّا للكتابة، فهي منظومة فردية قادرة على تجريد مفردات الحياة ومنحها مزاجًا أسطوريًّا من نوع خاص جدًّا، وبقدر ما تُلغز، فإنها تُثير كوامن العقل سعيًا للاستجلاء والاستقصاء (لقد حاول «فرويد» ذات مرة، تفسير دلالات الرموز اللاشعورية بتوظيفها في نظام قادر على استبطان الوعي، على غرار نظام الكتابة الرمزية الصينية!) فكل قراءة

اجتهاد يسترشد بالعقل لفض معميات الرمز وخبايا الأساطير، كل مطالعة، كشف واهتداء وتجاوز، ووثبة جديدة فوق الطريق.

وكان الطاو طريقًا، اجتازه لاو تسو، ذات يوم، بعد أن ضاقت به الحياة وسط أجواء مضطربة، قاصدًا العزلة، فلما بلغ إحدى نقاط الحراسة على حدود الدولة، وهو في طريق الرحيل، أوقفه قائد الحرس، وكان واحدًا من المثقفين الفاهمين لقدر ومكانة شيخ الفلاسفة والحكماء، وطلب إليه أن يضع له بخطه كتابًا يحوي خلاصة أفكاره (... بما أنه ذاهب هذه المرة بلا عودة!) وهكذا جلس لاو تسو وتناول دواة وقلمًا وراح يسجِّل في خمسة آلاف كلمة، (٨١ فصلًا) أشهر مدونة في تاريخ الصين، ثم مضى في طريقه إلى منتهاه.

محسن فرجاني
مصر، القاهرة
مارس ٢٠٠٥م

الجزء الأول

طاوجين

الفصل الأول

الطريق،[1] إذا ما قلت الطريق، فليس هو الدرب الذي تعرفه من بدء الأزل،
والمعنى، عند مَن قال بالمعنى ليس هو المفهوم الجاري على الأبد.
اللاوجود، صفة لبدء العالم،
أما الوجود، فهو أصل الموجودات كافةً؛
فلذلك لزم أن نبدأ من عين حال البدء الأزلي لكل موجودٍ، كي نفحص
جوهر الطريق،
بل لا بد من اقتفاء آثار الأصل الثابت
للموجودات كافة،
حتى نُدرك تمام دلالة القَدَر.
الوجود والعدم كلاهما ينبوع عينٍ واحدةٍ،
تشعَّبا منها اسمين مختلفين،
لكن المغزى فيها عميقُ الغَور، عصيُّ الفَهم،
ولطالما كان الدرب الواصل من أبطن بواطن الوجود المادي الملموس، إلى
آفاق المعاني الذهبية المجرَّدة،

[1] هناك مَن يترجم «الطاو» بهذا المعنى، لكن الطريق، في الطاوية جاء بمعنيين: (١) جوهر الروح. (٢) قانون تطور الموجودات، فهما مَعنَيان يكثران في أقوال لاو تسو بغير صياغة محددة، وهذا أمر لافت للنظر خصوصًا لأن الطاو يُعَد ركيزة البناء الفكري كله عند لاو تسو، قل إن المفهوم اتسع فضاعت العبارة، أو ضاقت العبارة، بتعبير «النفري»، الصوفي البصري الشهير.

هو الطريق الفاتح أبواب السرِّ المعمَّى،
فتتجلَّى دفائن ألغاز كانت في حجب الاستتار.

الفصل الثاني

لو عرف الناس الجمال في كل جميلٍ، لتبيَّنوا القبح جليًّا، فإنْ أدركوا الخير في كل صفات الخير، تجاهروا بكل نعوت الشر؛ فلذلك يولد الوجود والعدم ضدين مُتقابِلَين، ويتبادل اليُسر والعُسر المواقع، ويحلُّ الطول محل القِصر، تتساند الذرا والوهاد على مُتَّكأ واحدٍ، وينسجم رنين الصوت في الصدى، فيسعى اللاحق في إثر مَن مضى؛ فلأجل هذا يُقيم القديسون بحال من الزهد؛ يعظون بغير تراتيل، يرضون والعالم سخط، يقنعون والناهب ينتهب.

إنهم الكرماء تحت بهاء العزَّة، لا يتباهون بفضلٍ إذا فاضت تحت أيديهم ساحات الرخاء، فيدوم لهم دوام بقاء الذكر خالدًا خلود المدى.

الفصل الثالث

إن تجاهل الأكفاء والموهوبين كفيلٌ بتهدئة الأحوال، وإزالة أسباب التناحر، إنَّ كنزًا غاليًا ومهملًا لن يُغري لصًّا بالسرقة، فاعلم أن حجب مكامن الاشتهاء، يصدُّ عن زيغ العقول، فما كانت الغلبة لحاكمٍ عاقلٍ إلا بما أشبع من بطون، وأفرغ من أذهان، وما استتبَّتْ له الأمور إلا بما بنى من أجساد وخرَّب من هِمَم وعزائم؛ فبقي الجهل آبدًا، واليأس سرمدًا، وذو الفطنة ذاهل الفطن، وليس أحكم من حكمة القائل: «دع الأمور للمقادير!» ففيها معقد مقام السلام، ومستقر أحوال الناس جميعًا فوق الأرض.

الفصل الرابع

أعلم أن الطاو معنى مجرد، لا شكل متجسِّد، لكنه قيمةٌ لا تتناهى.

دلالته تعزب على الأفهام؛ بيد أنه أصل الوجود ومجمع أسراره، هو انثلام حدِّ النصل، وحل أطراف الخيط المعقود.

هو صفاء لوامع السَّنا في شوارق النور، وكدر العواصف في خِضَم رياحٍ ورمالٍ، فهو المعنى المجرَّد، تحت ستر أسرار، تخاله غيبًا معدومًا، وهو عين الوجود.

لست أعرف منشأه أو مصدر وجوده، فربما هو أسبق وأقدم عهدًا من الآلهة.

الفصل الخامس

ليس على الأرض رحمةٌ، فمكتوب على الإنسان أن يَلقى صنوف الهوان، سواء أقام في الأرض، أم حلَّق في السماء.

حتى الحكماء، صاروا أشبه بشياطين، يسومون البشر سوء العذاب.

ما أشبه الخلاء الكبير بين السماء والأرض، بصندوقٍ مُعبَّأ بهواء، فهو فارغٌ وممتلئ معًا، فكلما نضب مودع باطنه، تجدد محتوى فراغه بوافر الخلاء؛ إن صخب الحياة لغوٌ سقيم، وكل شواغل الأيام، تُرَّهات منثورة في خِضَم فضاء من عدم.

فدع زمام الأمور للمقادير، والزم ساحة الرضا والإذعان.

الفصل السادس

الطاو وجودٌ سرمديٌّ، غموض أبديٌّ، دهاليز أسراره كخفايا أنثوية.

بواطن احتجبت وهي أصل الوجود، بقاؤها فيضٌ، وعطاؤها أمدٌ، وسيل مدرار، لا ينقطع ولا ينفد.

الفصل السابع

الكون، بسمائه وأرضه، موجودٌ أزلًا، لأنه لم يوجد لذاته، فهو خالد الوجود.

كذلك الحكماء، يتبوءون مكانتهم السامية، بما يروضون أنفسهم من تواضع.

يحيون دهورًا تحت ستر العيش، برغم أن الدنيا لم تكن قُصارى أمانيهم. ألا ترى أن الإيثار والزهد يبلغ بالمرء مقامًا أرفع مما تبلغه مقاصد الأنانية؟!

الفصل الثامن

العاقل مَن يسلك مسلك حياته، كمسيل نهرٍ جارٍ؛

فهو — كالماء — مطواع، لا يتحرَّش ولا يأبه بقصد القاصد خيرًا أو شرًّا.

فيلبث راكدًا بأدنى الجداول، فيمكث مكث الطاو.

فالخير لَمَن اتخذ لنفسه مقامًا راسخًا، كأنه قطرة ماءٍ في جوف بحرٍ ساكن، كأنه كلمةٌ طيبةٌ في حديثٍ ودي عابر، أو يد عادلةٍ تحت سطوة أحكام جائرة، أو بصيرة ثاقبةٍ بشاهد الهدى، تُضيء مَسْرى السالكين.

فما كان للطاو أن يقرب مواطئ الزلل أبدًا، بما اجتنب من مزالق المشاحنة واللغو والجدل.

الفصل التاسع

مقام العقود والخذلان، أفضل من حال السعي الدائب، لأجل نفسٍ لا تشبع. إن كأسًا مترعة خليقة بأن تنسكب؛ لكنَّ كوبًا فارغًا، يستقرُّ ثابتًا فلا يضطرب.

إن أشد النصال حدَّةً ومضاءً، أكثرها عُرضة للانثلام؛ وأشد الخزائن إثارة لغواية السرقة، أكثرها امتلاءً بأثمن الودائع.

كما إن مظاهر الترف المجللة بأردية الغرور مدعاة لاجتلاب الفتن.

فالعاقل مَن وارى نفسه ستر الخفاء، وهو في سطوة المجد، وبهاء النجاح والفوز.

الفصل العاشر

أيمكن أن تخلد خلود روح في جسد؟

ويلتقي روحٌ طاهر، بلهث أنفاسٍ خبيثةٍ طي الصدور؛ فيمتزجان ويبرآن من اغتراب، براءة قلب طفلٍ لا يأثم؟

هل تجلو مرآة نفسك، فينبثق صفاؤك رائقًا بغير كدرٍ؟

أيمكن أن تحبَّ شعبًا وتحكم وطنًا، دون بطشٍ ودهاءٍ وأكاذيب ملفقة؟! أيمكن أن تحني رأسك أمام عاصفةٍ عاتيةٍ؟

أيمكن أن تنصاع لسطوة الطبيعة، وتتنازل، وتتراجع، فاهمًا، أمام هوى الطبائع، وقد استفاق لديك الوعي وانجلت البصائر؟

ما أنبل يدًا أعطت فأغدقت، ثم تناءت عن المَنِّ بالإحسان وما أعظم طليعة قادت، ومهَّدت دروب الحياة، ثم توارت بأذيال الركب، في إباء شريف!

فذلك من سر النعت بعميق غور الخلق الأصفى، وباطن أبطن منبته الدفين.

الفصل الحادي عشر

ثلاثون عَصًا خشبية، ملتفة حول استدارة مركز دائرة، تصنع عجلة دوارة.

أتعرف أنه لولا الفراغ ما كان يمتلئ المكان؟!

لولا فضاء حول قطبٍ مركزيٍّ، ما الْتَأمت هناك العِصيُّ والإطار والدوران.

كذلك لا تصير قطعة من صلصالٍ إناءً صالحًا للاغتراف إلا بقلبها الفراغي الباطن.

ولا يقوم في جدارٍ بابٌ، أو تطل على الأفناء نافذةٌ، إلا بما انتقب في الجدران من مساحاتٍ فراغية، فالخلاء العدمي شرطُ بدءِ الوجود، فلذلك صار للموجودات يدُ العطاء، وللمحجوبات طيُّ الغيب مأمول الرجاء.

الفصل الثاني عشر

ما زاغت الأحداق،
وتاهت في العين البصائر،
إلا بساطع النور الوهَّاج.

ولا ارتجَّتْ أسماع وصُمَّتْ آذان،
إلا بصاخب اللهو ودويِّ المُجون.
كم من وليمةٍ دسمةٍ، عُمرت بها الموائد،
ولم تشبع منها البطون!

كم للصيد من لذة!
وللافتراس من هوى جامح!
لكنَّ بقلب الصياد خوفًا مُقيمًا،
وبين جوانح المفترس أشباح رعبٍ جاثم.

الفصل الثالث عشر

الفوز لَمَن نال خطوةً،
والخزي لَمَن تردَّى في حمأة الهوان ... لا ظلَّ ولا أثر، والعاقبة، سواء بالفوز أو الخسران، مكمن خوف مُقيم ... كالمصير ... كالقدر.
أتعرف علة خوف النائل حظوة؟
تلك أمورٌ بديهية،
الفائز، دومًا، يخشى أن تلحقه إهانة،
... أن تفلت من بين يدَيه مقاليد الظفر، الفائز — كالمخذول، كالخاسر، كطبيعة غرائزنا البشرية، يشقيه الروح الأناني، الطفلي، بنوازعه الحسية.
أما رأيت أنَّا نتحرَّر من قبضة خوف «تصاريف القدر»، كلما تخطينا عتبات الذات الفردية؟
فلذلك، لن تجد في العالمين أحدًا يصلح لإدارة شئون مملكة مترامية الأطراف،
مثل الباذل نفسه،
الخارج من أسر أناته الذاتية.
لن تجد يدًا تقطر ندًى،
مثل يدٍ قانعة ... مثل كفٍّ راضية،
عطاؤها فيض غامر،
فوق الممالك والبشر.

الفصل الرابع عشر

كل ما لم تُبصره العين وهمٌ مكنون،
كل ما لم يدركه السمع زيغٌ زائل،
كل ما لم تبلغه مدركات الحسِّ هباء معدوم.
تلك ثلاث لا يقف عليها استقصاء.
تلك ثلاث مطويات بستر غطاءٍ واحد،
تلك ثلاث تترادفن بذات المعنى؛
سامقها، شحيح النور، أدناها قاتم حجاب الظلمة؛ فتلك حال لا يحيط بها وصفٌ، ولا يتجلَّى بها إدراكٌ ماديٌّ ملموس.
[وإنما هي] محض خيال سديمي في فضاء.
خفاء لا يتبدَّى للناظرين،
ودرب لا يتجلَّى للسالكين.
فاهتدِ بهدى الطاو التليد،
وتأمَّلْ بدء كينونة الوجود،
تملك مفتاح مغاليق الكون،
وتتسع بآفاق وعيك أقطار البصائر،
وينطرح لقدميك مسار الطريق.

الفصل الخامس عشر

كان الراسخون في الفِكر الطاوي قديمًا،
يحملون في قلوبهم أسرار المعنى وخبايا التأويل.
وكانت الكلمات مكامن دلالات،
واجتهادات رؤًى بعيدة الغور،
وكان حملة أسرار الكَلِم
أشق من أن يحيط بأطوارهم الفهم،
أو يدور بأطياف ألغازهم المعنى.
ولئن حاولنا أن نصف لك شيئًا من أحوالهم،
فلن يسعنا إلا القول بأنهم:
متردِّدون، كمَن يعبرُ نهرًا من جليدٍ،
حذِرون، كمَن يتقي عاجل البلاء،
مُهذَّبون، كضيوف مأدبةٍ ملكيةٍ عامرة،
وادِعُون، كمسيل قطراتٍ من ثلج مُذاب،
مُخلِصون طاهرون، طهارة عود نبات أخضر،
واضحون، كأودية منبسطةٍ للناظرين،
مَحجوبون كأسرار مسربلةٍ بالغموض،
كتيَّار نهرٍ دافقٍ،
كثيف الجريان،
غائم مغمور الباطن.
فمَن ذا يكبح دفق شلالٍ جارفٍ [... سوى الطاوي]؟

ومَن ذا يقدر أن يُصفِّي كدر بئر آسنة؟
مَن ذا يجسر أن يزلزل أركان أجواء ثابتة الرسوخ؟
مَن ذا يفكِّر بأن يلهب بواطن بركان محمومٍ، في تقلب نيران جمره الدفين؟

الفصل السادس عشر

كابدت عناء مجاهدة النفس،
فحفظت نقاء جوانحي،
وأرخيت لروحي نشر السكينة،
ونظرت، فإذا الناس فيض حياة لا تفنى،
أفواج تأتي وتروح،
وأزمان تتعاقب.
الكل مزيجٌ من ألوان شتَّى؛
لكن ...
على البدء دومًا، تعود الدوائر،
وإلى المبتدأ يعود كل آخِر،
فالرجوع إلى الأصل طمأنينةٌ،
والطمأنينة عود بدء،
وعود البدء قدرٌ دهري،
فمعرفة السرمد الدهري هي عين جلاء البصيرة، فمَن لم يعاين طبائع الأشياء،
وردَ موارد الهلاك، أما مَن أدرك جوهر الطبائع،
فقد أُعطِي مفاتح الرضا،
ومَن رضيَ فقد عدل،
ومَن عدل فقد حكم،
ومَن حكم فقد اهتدى هدى الطبيعة،

ومَن وافق الطبائع فقد سلك في الطاو،
ومَن سلك في الطاو فقد امتدَّت به الآماد ...
وطال به البقاء ...
وانعقدت له معاقد السلام والسكينة.

الفصل السابع عشر

أعظم عهود الحكم السياسي هي التي
تمرُّ كنسمةٍ هادئةٍ [= لا يكاد يستشعر أحد ثقلها!]،
تليها عهود رضا المحكوم عن الحاكم،
ثم عهود إجلال الحاكم، توقيًّا لبطشه،
وآخِر درجة منها،
زمن يسقط فيه السادة من عين رعاياهم.
فمَن لم يصدق قومه، كذَّبته المقاصد،
واجترأ عليه المُجترئ،
فأفضل الولاة طرًّا
مَن تدبَّر الأمور مليًّا،
فأبصر طبع الطبائع،
وأرخى للحلم عنان الإمهال،
فتدبَّر وتفكَّر،
قبل الشروع في تصريف جريان الأحوال،
حتى إذا دعا داعي الجد والعمل،
قال الناس:
تلك أمورٌ،
أيسر من الماء والهواء.

الفصل الثامن عشر

ما تأسست الفضائل إلا لرأب صدع الأخلاقيات[1] المتداعية،
ولا أطلت مخايل المكر والدهاء،
إلا من ثنايا الوعي والحكمة والنجابة؛
فلولا العقوق والجفاء والشحناء،
ما كان البر والودُّ والتراحم.
ثم إن أجواء الفساد والخيانة والفوضى
هي التي ألهمت نفوس الوطنيين
إرادة النقاء والإخلاص والنظام.

[1] نلاحظ أن مقولة الفضائل والأخلاقيات تنتمي — أكثر — إلى التيار الفكري الكونفوشي، وهو نمطٌ يلقى انتقادات حادةً عند لاو تسو والمدرسة الطاوية عمومًا، وهي التي ترى أن الدعوة إلى الأخلاق لا تقوم — أساسًا — إلا وسط ظروف انهيار وتفسُّخ وانحلالٍ عارمٍ؛ ذلك أن المجتمع الملتزم بالمنهج الطبيعي، لن يصيبه الفساد، ولن تتدنَّى أخلاقياته إلى الدرجة التي يحتاج معها إلى المناداة بـ «مكارم الأخلاق». (المترجم)

الفصل التاسع عشر

انزع قناع الفطنة،
وحجاب الكياسة،
كي تصبح أكثر نفعًا للناس.
دع مظهر الرحمة،
تتجلَّى لعينيك حقائق الطاعة والبر الجميل.
تجنَّبْ مخايل الحرص والتدبُّر واللياقة،
تتناءى عنك حجب الأنانية.
واعلم أن محض التكرار النظري لتلك المبادئ الثلاثة
لن يُجدي شيئًا،
فالعِبرة بالتطبيق العملي المشهود بتمام النفع،
لكل سالكٍ بيقين.
فليكن المظهر المتواضع البسيط
موصولًا بالجوهر النقي الأصفى،
ثم انزع عنك أنانيتك،
تتجافى عنك غواية الأماني،
وألقِ زخرف الزيف،[1]

[1] المعنى، حرفيًّا: «دعِ العلم وشأنه ... تهنأ حياتك وتصفو أيامك»، وتذهب التأويلات شتى المذهب في تفسيره؛ فمنها ما يرى أنه يفيد التخلِّي عن طلب العلم المؤدي للتكسُّب وإتقان الحِيَل والدسائس. ومنها

تصفو في ساحتك منازل الكدر.

ما يرى أنه يفيد السعي إلى أسمى مقامات المعرفة بدل الاكتفاء بهامش التعلُّم الذي لا يهدي جاهلًا، ولا يُقنع مثابرًا طموحًا، وأحيانًا ما تَرِد هذه الفقرة في المدونات المحققة من كتاب الطاو في أول الفصل التالي (الفصل العشرين). (المترجم)

الفصل العشرون

تُرى ما الفرق بين الرفض والقبول؟
بين الخير والشر ... ما الفرق؟
والخوف الذي تفزع منه الصدور،
كيف لي أن أهرب منه،[1]
تلك أفكارٌ قديمة، طريقها ممدودٌ بلا أمد،
والناس قلوب عامرةٌ بالفرح،
وخطوات لاهية،
ترفض، تعبث،
تتدافع صوب مآدب عامرة،
تتسلق أدراج ليل ربيع ساحر،
فتلتمع أحداق مفتونة بمرأى مطالع النور الوضَّاء،
وتلتوي في طيِّ الأعناق أعناق،
الكل ابن شقاء وهناء عيشٍ،
سوى أني غدوت غير مكترثٍ بحالٍ كطفل بليدٍ تعانده ابتسامة،
كغريب ابن خلاء وطريق، لا مقام ولا مسعى،
تصفو أحوال الناس، وتتكدَّر أيامي،
بيد أن مدار الأمر وقطب العلَّة

[1] ضمير المتكلم هنا يُشير إلى ما ينبغي أن يكونَ منسوبًا إلى السالك في طريق الطاو.

يرد إلى غفلة غمرت مجامع أفهامي،
فالكل وقده ذهن شرير ماكر،
ووحدي، بساذج إخلاصي الطفلي،
أصيخ آذان الصدق لدنيا من أكاذيب،
وأمدُّ الكف اللين ضراعة لقلوب قُدَّت من حديد.
آفاق شطآني فوق المدى،
لكن الأعاصير لفح نزق ثائر طي الأبد،
الكل جاني صيد،
ووحدي، ساحتي خلاء؛
فمن ثَم، تناقضت بيني وبين الناس المقاصد،
ولا غرو أن يصير إلى تلك الحال
كلُّ مَن سلكَتْ به إلى الطاو المسالكُ.[٢]

[٢] حرفيًّا: مَن ولَّى وجهه شطر الأم [التي هي] الأصل والمبتدأ! (المترجم)

الفصل الحادي والعشرون

أكمل الصفات، تنبع مع «الطاو» من قلب واحد معين، فكأنهما عين النعت،
بتمام مطابقة الحد على الحد، لكن الطاو بعض من أسرار الوصف
المكنون،
في حجب المعنى، غيمه حالِك، بيد أن غوره قبس من ألمع إشاراته،
وإشارته رُسُلُ أشرَف مقاصده،
في كسوة أخفى دلالاته،
ودلالاته أمينة الغرض، كريمة الإفادة،
راسخة الإخلاص، وافرة النقاء.
إن للطاو منهجًا محفوظًا في لوح الدهر،
تداولت به الأيام طرائق الإفهام؛
فهو الدليل المعهود في معرفة كلِّ ما تجلى به الوصف،
ولئن أردت سبيلًا لمعرفة مبتدأ الكون،
فالطاو، هُدًى للسالك طريق العلم وسُبل الرشاد.

الفصل الثاني والعشرون

قيل قديمًا: «طوبى لَمَن وجد مع الظلم انتصافًا،
وفي طيِّ الاعوجاج مديد استقامة،
ويا حظ مَن تجدَّد مع قديم الاهتراء،
واغتنى مع الزهد،
وتساءل مع ثبات البرهان.»
لذلك،
فالعاقل مَن جمع إلى الطاو
منثور تلك المبادئ الخالدة،
وتمثلها جميعًا، قبلة مثل قويم،
وموثق أزكى هداية؛
[فهو أن أقتدي بها ...]
فله المقام الراسخ في جنبات الأفق الشريف،
بينما هو في حال الإعراض عن لفت الأنظار،
يتجلَّى مبرزًا في أتمِّ بهاء،
بينما هو قابعٌ في الركن القصي؛
يدرك ذُرى النجاح،
وهو عائفٌ عن خيلاء الزهور؛
يترقَّى في مدارج المجد،
وهو في ذليل التواضع؛
يترفَّع عن الخوض في ساحة اللجاج والجدل،

فيتناءى عنه مُبغِضُهُ؛
وقد دار القول في المثل السائر:
«الدوام لَمَن استنام.»
[= حرفيًّا: البقاء في احتمال البلاء]
فما أصوب القول وأصدق المقال!
فذلك هو المبدأ الجالب للنفس — وقت المحنة —
أخلدَ الأمان وأثبتَ المقام.

الفصل الثالث والعشرون

الزم حدَّ الصمت والسكينة،
تتقدَّس خصالك،
فتسلك مسلك الطبيعة الدهرية.
قد عصفت العواصف،
فلم تلبث غير برهةٍ،
وأرعدت البروق،
فما سطعت إلا طرفة عينٍ.
أما قد عرفت أنها فطرة الوجود،
وطبع الموجودات في أنحاء السماوات والأرض؟
أما تجلَّت لناظريك منها شواهد العجز عن الثبات؟
أما لاحت لك منها نعوت التقلب المُستدام؟
فكيف تتجاهل طبع الطبائع؟
ألا إن غاية المنتهى هي عين المبتدا،
فالسالك هُدى الطريق وارِدٌ قَصْد الهُدى،
والقاصد طريق الحكمة واصلٌ إلى مقصده،
والساعي إلى الخسران بالغٌ مُبتغاه،[١]

---

[١] يزعم بعض المحققين — في النسخة الصينية المترجم عنها — أن قراءة «الخسران» هنا خاطئة، ويُرجِّحون بدلًا منها كلمة «الإيمان»، بدعوى حصول الخطأ على يد النُّساخ في كثيرٍ من المدونات القديمة. (المترجم)

إن السالك إلى الهدى يجتمع إليه الهدى في غاية مسعاه،
والقاصد إلى الحكمة تتوافد إليه مراتب الحكمة،
... في متكأ جليلٍ.
والساعي إلى الخسران تتوارد عليه موارد الخسران.
... تجري إليه جريان مشتاقٍ.
إنه لا يحيق المكر إلا بقلبٍ واجس بالظنون.

الفصل الرابع والعشرون

كادت خطوة الواثق تتعثر،
ثم كادت وثبة اللهفان تتقهقر،
وأوشك دَعيُّ الجاه أن ينخسف
... في حضيض الذلة.
فما بال المختال يزهو بغير تيجان؟!
وما بال المغتر يتشامخ بغير صولجان؟!
فدونك قسطاس الطريق والهداية،
فما ربحت للضالين كفة ميزان،
ولا قام لهم في أعين الناس مقام صدقٍ؛
إنه لا يفوز إلا السالك هدى الطريق،
الذي تفكَّر، فأبصَرَ، فاستقام عن الميل.

الفصل الخامس والعشرون

ثمة غيب في خفاء مستور،
حاز كمال بدء الوجود،
قبل شهود السماء والأرض،
[ذلك الغيب:] فيض أسرار،
محجوب بشطآن الصمت،
مشهود بعين السكون.
مقامه مخصوص بنعت الكلي الأَحَديِّ الجامع،
ليس له من ورائه إرادة غيرية؛
[= فلا مبدل له غير ذاته]
[... ذلك الغيب:] دورة البدء إلى المنتهى،
دورة دائرة سرمدية،
عَودُها أبدٌ على بدء،
بَدْؤها عَوْدٌ إلى أزل.
[... فذلك الغيب هو:] مبتدأ الوجود،
ومبدئ الموجودات كافة،
لا يحيط باسمه مُسمًّى،
غير أني أشرت إليه رمزًا بـ «الطاو»،
ووصفته — والوصف مجازي — بـ «العظيم» الذي
ليس لواسع أقطار مداه حد،
وليس لقديم دوران مجرى بقائه منتهى.

دَفْق أبديته، مبتدأ جريانه،
وذروة اكتماله، بدء دائرة رجوع لعين المبتدا،
فالطاو والسماء والأرض والملوك والأباطرة جميعًا،
حازوا جلال النعت بالتعظيم؛
ذلك أنهم أقطاب ملكوت الكون كله،
ولا يعدو جلالة الإمبراطور سوى أن يكون،
أحد المنسوبين إلى الوصف الجليل.
و[لطالما كان] الإنسان بميثاق الأرض يهتدي،
والأرض بسنن السماء تسترشد،
والسماء لشرائع الطاو حافظة،
وكان الطاو لأحكام وجوده بارئًا ومقيمًا.

الفصل السادس والعشرون

من جذر العزم الراسخ،
يتفرع النزقُ الطائش،
ينبثق شعث أحوال الرهج المنفلت المجنون؛
فالعاقل من إذا هام في دروب الترحال،
كانت خزائن أحماله أثقالًا،
وكانت مؤنته كفاية الطريق؛
نُزُل أسفاره رغد،
لكن مكثه ظِل زائل،
[فلئن كان الأمر هكذا]
تُرى — إذَن — كيف يستهين جلالة الإمبراطور،
بأخطر شئون البلاد؟
إلا إن الاستهانة [... في مثل تلك الأمور]،
نزق طبع يضيع راسخ الحكمة،
وخطل رأيٍ يُبدد جلال سؤدد المجد،
وسطوة تاج الملك والسيادة.

الفصل السابع والعشرون

أمهرُ السائرين مَن إذا مشى،
لانت خطوته، فعَبَر بغير أثر،
وأفصحُ المتكلِّمين مَن إذا تحدث،
بانت فصاحته فأفحم وظهَرَ،
إنَّ مَن تجلَّت عبقريته في حسابات الأرقام،
لم تعوزه آلة الحساب؛
وكذلك حارس الأبواب الذكي،
أبوابه مصونةٌ مغلقةٌ بغير أقفال؛
وعاقد الحبال الأريب،
بضائعه معقودةٌ بغير أربطةٍ،
وجدائل خيوطه موثقة بغير زمام؛
لذلك، فالعاقل مَن بسط لكل الناس
سرادق عنايته،
وحفظ في ذخائر النفع خير الوسائل،
لم يغادر وسيلة إلا أحصاها،
فذلك من جلاء الفهم ونافذ الحكمة والبصيرة،
إن الأخيار للأشرار مناهلُ علمٍ وهداية،
وإن الفُجَّار للأخيار ساحة موعظة.
فإيَّاك واحتقار أقطاب الهداية،
ثم إياك وإياك من امتهان قداسة السالكين؛

فإنه لا فضل مع احتقار سبيل الرشاد،
ولا هداية مع استصغار شأن الضالين،
إن في ذلك أسرارًا من الحكمة،
ولطائف من بواطن الدلالة ... فتأمل!

الفصل الثامن والعشرون

اعرف صلابة صخور التل،[١]
واسكن في رخاء أعطاف الوديان المخملية،[٢]
فلئن عرفت مدارج سطوة القوة [... الذكورية]
في غليظ قسوتها،
فالزم مواطن الخذلان [... الأنثوي]، إذعانًا وتسليمًا،
ولتكن كمجرى نُهير في أدى سفح جبالٍ مشيدة،
تتقدَّس خصالك أبدًا مؤبدًا،
وتُرَد إلى ديمومة صفاء ميلادك الطاهر،
فيشهد شاهد قلبك، قلب طفلٍ وليدٍ،
في مبتدأ حصول الخاطر.
اشهد طوالع النور،
وابقَ في مكامن الغيم الحالك،
ابقَ مثالًا تتأمَّلك الجموع،
تتسرمد خصالك،
وتستقيم، عن ميلٍ، حقيقة طريقك،
ويرجع مبتغى قصدك إلى غايةٍ باقيةٍ بقاء الأبد.

---

[١] الإشارة لجنس الذكورة.
[٢] الإشارة للرمز المؤنث.

أبصر سؤدد المجد،
ثم اسحق أنفك في حضيض المذلة،
فكن كرديم أخدود في أدنى الوادي،
يكفيك زادك ويكثر وافر خصالك على المدى،
وتُرَد إلى نقائك الأصفى،
فتعود بادئ مبتدأ جوهر مادي،
ثم ينحطم مجمع جوهرك،
ويتفرق شظًى منثورًا،
فتمتلئ به الأفنية،
ويجمعه العالمون الحكماء بأيديهم،
ويشيدون به مشيد العروش والممالك،
وتصير لهم الولاية فوق كل والٍ؛
ذلك بأن الحكمة التي عليها مدار صلاح الكون،
تنطق عن مبدأ جوهريٍّ كليٍّ،
لا مُفرِّق لجامع مجمع أحديته.

الفصل التاسع والعشرون[1]

تَعِس مَن ابتغى امتلاك الدنيا،
بمجمع قبضته،
ضلَّ مَن تصور أنه مُسيِّرها
وفق هوى قلبه.
الدنيا ملكوتٌ قاهرٌ يتأبَّى عن أن يذعن لعبث الأهواء.
مَن تسلط على الدنيا بالقهر،
نازعته بالخسران،
مَن نازعها بالغلبة،
ناوأته بالخذلان؛
ذلك بأن غالبها مغلوبٌ،
وآخِذها مأخوذٌ بضياع جنى مسعاه.
للدنيا سرمد طبع جارٍ لا يتبدل:
إقبالها إدبار،

[1] يُمثِّل هذا الفصل أهم ركن من أركان الفِكر الطاوي، ويُطلق عليه في الصينية «وو وي»، وهو أشد المصطلحات الطاوية إبهامًا؛ فلا أجد مقابلًا له في العربية يتطابق معه في دلالته، ويحقق درجة عالية من التكافؤ الترجمي.

لكنه، على أية حال، أقرب لمعنى «اللافعل» أو «التسليم» أو «الإحجام عن معاندة طبائع الأمور»، وربما نستطيع أن نتصور المغزى الحقيقي بتركيب هذه الدلالات الثلاث في نسقٍ تعبيريٍّ واحدٍ. ولنتذكر، أن الكتابة الطاوية ذات طابع صوفي شديد الرمزية والغموض. (المترجم)

الهمس في كهف أسرارها،
دوي عاصف ملء الأقطار،
مكمن قدرتها عين بلاء أقدارها،
وافر كثرتها نقصان؛
لذلك،
ينبغي على العاقل أن يلزم مقام الاعتدال،
دون شططٍ أو إفراطٍ.

الفصل الثلاثون[١]

في الطاو ما يغني رجال البلاط عن تسليح جيوش،
واستنفار حشود،
فمع كل قوة ظافرة،
بطش جبان،
ووراء كل حرب،
ساحاتٌ مريرة وزمان في ذل الحرمان،
فلئن اشتدَّ ساعد المقاتل بعزة النصر،
فليمسك عن المقهور يد الامتهان
[= المقاتل المظفر لا يسرف في البغي والقهر]
وليحفظ وجهه من سيماء الغرور،
ولينزع عن قلبه هواجم الطغيان،
وينقي سرائره من سطوة الرضا الواثق بدوام الفوز،
وليزعم — تواضعًا — أن النصر قدرٌ مقدور،
وأن الغلبة تأتي أحيانًا عفو الخاطر،

[١] ما زال فريق من أتباع المذهب الطاوي، يَعُد كتاب «الطاو» أحد أهم روائع التراث العسكري الصيني القديم، وهناك جدلٌ حول ذلك الزعم، لكن المؤكد أن لا وتسو الذي عاش إبان ما يُطلق عليه في مدونات التاريخ الصيني «زمن الربيع والخريف» (٧٧٠–٤٧٦ق.م.) كان جديرًا بأن يتناول شئون الحرب في أنحار متفرقة من كتاباته (هو يعبر، صراحة، عن رفضه لبشاعة الحرب وويلاتها) فتلك فترة اشتدَّ فيها الاهتمام بوضع نظريات للحرب وفنون القتال، بعضٌ من إنتاجها يلقى رواجًا حتى الآن. (المترجم)

فبذلك، يصير النصر شرفًا كريمًا في ساحة النزال،
فلا يتدنى لعار البغي على خصم ذليل في حمأة الهوان،
[... ولقد جرت العادة في طبائع الأشياء أنه:]،
ما من ظافر بمعارج الفوز،
مكين المرتقى، نافذ الوسيلة،
إلَّا نكص على عقبَيه،
ودارت عليه الدائرة؛
فتلك حال لا تتأدى بها للطاو،
صلة موصولة،
فمَن تناءى به النعت تباعد،
ومَن تباعد هَلك.

الفصل الحادي والثلاثون

الحرب نذير شؤمٍ،
رعبٌ نافذ في قلبِ الحي بسكين،
فما كان لعاقل أن يسلك إليها سبيلًا.
إن الدروب السائرة بالناس ذات اليمين،
تنقلب في الحرب طريقًا حذو اليسار،[1]
الحرب آلة مشئومةٌ،
لا يمدُّ الماجد الكريم إليها يدًا،
وإنْ ألجأَتْه إليها الضرورة،
فإذا ما اقتضاها، بالحتم، اقتضاء،
فلتنطفئ في غمدها ضراوة الافتراس،
ولتنثلم حِراب القتل المسعورة،
وليحذر المنتصر مغبَّة الغرور.
فالمغتر، كالقاتل، نشوان بسفك دماء،
وسافك الدم محتومٌ بالخسران [= مغلوب بقاهر الخسران]
[... لقد جرت العادة من قديم بأن:]،
الشمال علامة الفرح،

---

[1] حرفيًّا: إن الأماجد العقلاء الذين اعتادوا المسلك الأيسر في السلم، يتحتَّم عليهم الانتقال إلى اليمين وقت الحرب ... (لضرورة الإمساك بمقابض السيوف والحراب باليد اليمنى). (المترجم)

واليمين مشأمة تنقبض منها الصدور،
[... في الحرب]، تصطف الجنود إلى اليسار؛
فدليل الميمنة، يومئذٍ، بيد كبار القادة ...
... سادة. الموت والبطش الرهيب،
فلا غرو أن تصير يد الحرب العليا،
نذير شؤمٍ منحوس المقادير،
الحرب أشلاء وضحايا،
ومواكب جنائزية،
في الحرب تسقط البشرية،
ويصير المهزوم — والظافر جميعًا،
أسرى موكبٍ جنائزيٍّ
تجلله الأحزان.

الفصل الثاني والثلاثون

كم التبس على الأذهان معنى الطاو،
كم تاهَ به الوصف،
وتحيَّرت الإشارة؛
كم بقي الحرف تحت حجب الفهم،
محض رسمٍ بغير دلالةٍ،
وما كان الاسم سوى الرمز،
في أبسط وأيسر معانيه؛
لكنه المعنى الذي
يدرك كل أقطار الدنيا،
ولا يحيط بمداه وصف؛
هو المعنى الذي إذا فقه الملوك
بواطن حكمته،
انقادت لهم الدنيا بأسرها،
على قدم الامتثال،
وتعانقت به شوارق أنوار السماوات،
مع مسارب أغوار الأرض،
وتدلت ثريات من أزكى قطوف وثمر؛
وصار لكل يد طالبة،
كفاية مؤنتها بالعدل،
والعدل — حينئذٍ — ميثاق معهود بين الناس،

المواثيق متون معاملات،
اشتقت من طول التجربة الأسماء،
وصارت كلمات ومعانٍ في قبضة تصريف النبلاء،
فاعرف، وتبصَّر، والزم حد الأشياء؛
ففي لزوم الحد،
تنجية من الخطر،
ولو جاز، في هذا المقام، مضرب للأمثال،
[... فربما أقول:]،
إنه ما كانت نسبة الطريق (الطاو)،
إلى سائر الدنيا،
إلا كبحرٍ هادرٍ اشتُقَّت منه الجداول.

الفصل الثالث والثلاثون

مَن تجلَّت له دفائن النفوس،
فهو الذكي ذو الفراسة،
أما مَن كشف خبايا نفسه التي بين جنبَيه،
فهو الفطِن البصير.
الظافر في ساحة القتال باسل ذو بطش،
أما القاهر شرور النفس،
فهو الأصلب عزمًا وإرادةً؛
القناعة غِنًى،
لكن شريف السعي بمجاهدة النفس،
أعلى وأنبل هِمَّةً وكرامة.
صون الخاطر عن ضلال الرأي،
سند لخير الرجاء؛
أما خلود النفس بعد فناء الأبدان،
فهو البقاء السرمدي.

الفصل الرابع والثلاثون

الطاو فيض وجود غامر،
ظِلٌّ ممدود في كل الأرجاء؛
كل الآمال ترنو إليه،
وهو قصد كل رجاء،
كلما لاذ به مستجيرٌ،
انفتحت منه أبواب العطاء،
فإذا بلغ منه الفضل تمام الجود،
ترفَّع عن استخدام العرفان؛
بسط على الدنيا سحائب عنايته؛
فلم يتسلَّط بجبروت الولاية،
ولم يتدنَّ إلى حال اشتهاء،
ولا نازعته رغبة [... مما تُعانيه النفوس]،
حتى تحقق به الوصف بأنه بسيطٌ،
قد تمحض عن الرهبة والخطر؛
الكل تحت عزة سلطانه [... ليس لهم دونه سندٌ]،
لكنه عائف عن جناب الاستكبار،
فاستقام له النعت بأنه عظيم القدر؛
فلهذا، يبلغ القدِّيسون المقام الرفيع؛
بما اتخذوا من ذليل التواضع،
بديلًا عن ظاهر سطوة الولاية.

الفصل الخامس والثلاثون

مَن فُتحت له خزائن أسرار المعنى الطاوي،
امتلك زمام الدنيا بأسرها،
وقصدته أفواج السالكين؛
والقلوب — حينئذٍ — رائدها السلام والمودة،
والحياة رغد عيش تحت سماء الرخاء والسكينة؛
غير أن لذيذ الحياة ليس إلا رحلة قصيرة
لا تمضي أبعد من منتصف الطريق ...
[= كم استولت ملاذ الطريق،
بمآدبها العامرة، وأغانيها الصادحة،
على قلب مسافر،
في بعض منازل الترحال الطويل.]
[...]
الطاو، مجرد لفظ سقيم، على لسان الناطق،
الطاو، في نظر الناطق، محض خيال باهِت تُنكره العيون،
وهو في الأسماع وَقْر،
ثقلت منه أصداء الصوت المبين،
لكنه لَمَن شمَّر عن سواعد العمل الدءوب،
مددٌ بعزم وافر،
وهِمَّة قائمة على المدى.

الفصل السادس والثلاثون

إن أردت أن يجتمع في قبضة يدك شيءٌ،
فاطرحه ... لأجل معلوم؛
وإن طلبت أن تذلَّ لك أعناق الأمور،
فأطلق لها في البدء
عِنان السطوة والجبروت؛
شمِّر عن أكمام البناء والتشييد،
إذا نويت — آجلًا — أن تضرب بمعاول الإزالة والهدم؛
امدد يد العطاء،
إذا نازعتك نوازع الاستيلاء والنهب،
واعلم أن من لطائف التدبير
أن تُعاني — في مبتدأ الأمر — مشقَّة الأحوال،
حتى يصير لك زمام الأمور،
ويكمل لك منال الفائزين.
[... ومن ثَم فإن] أوهن الضعف غالب،
على شديد صلابة الفولاذ،
[...]
ليس للأسماك أن تُغادر حضيض الأعماق،[١]

---

[١] يرى المفسِّرون هنا مجالًا خصبًا للتأويل، حيث إن الدلالة — رمزيًّا — تشير إلى القادة السياسيين والملوك (... الأسماك) الذين يحظر عليهم التخلي عن عناصر القوة (... الأعماق!) مثلما يتحتم إخفاء أمضى أدوات

[... وهو حصنها المكين]
شوقًا لساطع النور عند رءوس الشطآن،
[... حيث مقتلها الوشيك]؛
لا ... ولا ينبغي استعراض أمضى أسلحة القتال [عبثًا]،
سعيًا للتباهي بقوة الجيوش والممالك.

القتال (... لوائح الرفت والترقي في الوظائف العامة، أساليب الثواب والعقاب ... إلخ) عن تدابير وحِيَل التلصص السرية؛ ذلك أن تسرُّب تلك المعلومات، ووصولها إلى الأيدي العابثة، يجعل منها أخطر مصدر للتهديد. (المترجم)

الفصل السابع والثلاثون

ما برح الطاو يترك الأمور تجري مجرى هواها،
فلا يُقحم نفسه فيما استقرَّ به طبع الطبائع،
فكل شيءٍ يسلك وفق طبيعته،[1]
وما من شيءٍ إلا ملتئم بعقد نظيم؛
لو تواصى الملوك جميعًا بميثاق الطاو،
وعدًا وعهدًا لا يتبدل،
لَأوفى الزمان بعهده،
وانتظمت شئون الدنيا [... بمَن فيها وما عليها]،
بنظامٍ طبيعي فريد في جوهره
نظام ... لم تخترعه الظنون،
ولم تسنح به خيالات الخاطر،
فإذا تسلَّط على القلوب،
غرض من أغراض النفس الأنانية،
بسطت على الأفئدة مشملة مما يعزُّ على الوصف،

[1] كثيرًا ما تستخدم الصينية الكلاسيكية قوالب تعبيرية مركبة لها دلالة المفردات البسيطة، ومن ذلك مثلًا تعبير: «العشرة آلاف ألف شيء» ويقصد به «كل» أو «جميع» أو «كل الأشياء». وقد لاحظت أن معظم الترجمات العربية للكلاسيكيات الصينية، المنقولة عن ترجمات أوربية، تمتلئ بتعبير «العشرة آلاف شيء»، وهي ترجمةٌ ركيكة، والأصوب أن نترجمها إلى: «كل شيء»، وهناك أيضًا تعبير صيني قديم، معناه الحرفي: «كل ما تحت السماء» ومغزاه: «الدنيا» أو «أهل الدنيا» أو «الناس جميعًا». (المترجم)

من أدنى نسيج طاوي طاهر الصفات،
فسكنت به النفوس، وقنعت،
فإذا التأمت شوارد النفس،
تحت سطوة ما يعز على النعت؛
من هدى الطاو،
صفت أوصافها من كدر الأنانية،
فإذا تنقت من نوازع الميل الأناني،
ولَجَت باب السكينة،
وصارت الدنيا بأسرها،
تترقى في معارج الرضا والطمأنينة.

الجزء الثاني

داجين

الفصل الثامن والثلاثون

مَن حاز أسمى مراتب الخلق والمجد،
وتبرَّأ من زيف التسامي المظهري،
استتبت له جدارة الوصف بأنه الشريف الأكمل؛
أمَّا صاحب الخلق الدنيء،
ففي أسر مظاهر الزهو والخيلاء،
ومن ثَم، تبرَّأ منه الخلق الكريم؛
المهذب الفاضل، تنقت أسراره من كَدَر التدبير،
فهو موكولٌ إلى تصاريف القدر،
أما الدنيء،
فهو الساعي لكسب حظوظ النفس،
ذُخْرُه فَقْدٌ وخسران،
وفعاله مَحْو وفناء؛
مريد الإحسان، متبرئ من هوى النفس،
لكن السالك بالعدل مدفوعٌ بغلبة إرادة ذاتية
[= الساعي إلى العدل،
مدفوع بغرائز التكفير عن الإثم]،
فقيه المراسم والشرائع،
هو الفصيح المفوَّه، المتكلم بالحسنى،
وسط الخاشعين المنصتين؛
فإذا ضجَّت، من حوله، ساحة العصيان،

شمَّر عن سواعد القهر،
آخذًا بناصية المارقين؛
[... أما دريت أن]
الفضيلة ما قامت، إلا بعد ضياع الطاو،
وما نودي بالإحسان إلا بعد ذهاب الفضائل،
وما استقامت العدالة إلا بعد انحسار الإحسان،
فما جاءت المراسم والشرائع إلا بعد فقدان العدالة،
ثم كانت الشرائع رأس الفساد،
وأجلى دلائل النفاق؛
وما من مقولة عرضت على الطاو،
أكذب من مقولة:
«استجلاء أسرار الغيب،
بثاقب التفرس والبصيرة»؛
لذلك، يلزم العاقل حدَّ الإخلاص الصادق،
دون ساذج الإذعان للشرائع والمراسم،
ويحفظ خاطره من أن يسنح فيه،
إلا الدستور الطاوي،
دون استباقٍ عابثٍ لكشف حُجب الغيب.
دع «السطحي»، «الزائف»،
إلى «الجوهري»، «الأصيل».[١]

[١] الجدير بالذكر هنا، أن طريقة الكتابة الرمزية الصينية تستعمل أحيانًا بعض الرموز التصويرية لإعطاء قيمة صوتية لبعض الكلمات القديمة التي صاغت علاماتها الرمزية، وكان يتصادف أن يكون الرمز التصوير المستعار = حاملًا لدلالة أخرى مختلفة عما استعيرت له، فهكذا تأتي كلمات مثل «الأصيل» أو «الأساسي»، وهي معبأةٌ في ثنايا تركيبها الرمزي ببقايا تصويرية لها علاقة بدلالة أخرى مغايرة (= الغليظ)، وكلمة مثل الجوهري تحمل صورًا لمعنى (الثمرات الناضجة)، والطريف أن إحدى ترجمات الطاو إلى الإنجليزية، الْتَبس عليها ظاهر التركيب الرمزي، وراحت تُؤوِّل المعنى على نحو:
[= دع الخفيف إلى الغليظ، الثقيل،
ثم اترك الأوراق الذابلة واحظَ بناضج الثمر ... إلخ.]

ومع ذلك، وبرغم الخطأ الفادح، جاء التأويل — بالمصادفة — معبِّرًا، سديد المعني، في محله تمامًا، متسقًا مع السياق الرمزي المعهود في الكتابات الطاوية ... ولو أن مثل هذه المصادفات السعيدة لا تتكرر دائمًا في معظم المناسبات، انظر: [Lao Tzu TAO TE CHING, translated: by D.C. LAU, Penguin Books, England: 1963, XXXVIII, Book, p. 99]. (المترجم)

الفصل التاسع والثلاثون

صارت الأشياء من الأزل،
سائرة في فلك القانون الطاوي،
دائرة في مدار الواحدية،[1]
فما كان يستطيع لساطع السماء بريق إلا ببقاء في آزال الواحدية،
وما كانت تتقدَّس أقداس الروح [= الآلهة]،
إلَّا في سرمد الواحدية،
وما كان يفيض فيض النهر الجاري،
إلا في مستدام جريان الواحدية،

---

[1] في الفكر الطاوي، تمامًا كما في أفكار التوحيد المصرية القديمة (... إخناتون)، نطالع كثيرًا تصورات عن الأحدية أو الواحدية أو (التوحيد)، ولكن من زاوية مختلفة؛ فلئن كان رمز الشمس «أتون» مطلوبًا في زمن تجاوزت فيه تطلعات الفرعون حدود الدولة المصرية، لدرجة أصبح معها الرمز الديني الواحد غطاءً فكريًّا يضمن استيعاب ولاءات ومواريث عقائدية مختلفة، إلا أن «أحدية» أو «واحدية» الفكر الطاوي تشير إلى المضمون الأساسي للفلسفة الطاوية، كما عبر عنه «لاو تسو»، وذلك من زاويتين:

(١) «الواحدية»: بوصفها الأصل الفريد للوجود الكوني، (الكون هنا بالمعنى الواسع للطبيعة)، بمعنى أن أصل الوجود كله هو الواحد/الطاو.

(٢) الواحدية، بمعنى الوحدة التركيبية الشاملة، وكان لاو تسو يقول: إن الوجود يقوم على الأضداد المتقابلة جدليًّا والتي تتألف منها كتلة الكيان التركيبي الواحد، وهي الكتلة التي يمكن أن تنقسم بدورها إلى ضدين متقابلين، يسهمان أيضًا، وعلى نحو جدلي بتركيب وحدة كيان قادر على أن يمنح عناصره حيوية الوجود. (المترجم)

وما كان يحيا الحي، ولا تتكثر الكثرة،
إلا بمددٍ من أزل الواحدية،
ثم ما كان يتولَّى الوالي ولاية،
أو يملك الممالك ملك متوَّج،
إلا بدوام حفظ الواحدية،
فاعلم أنه لو حادت الأشياء عن قانون الواحدية،
هلكت، وفني عنها شاهد الوجود،
كادت السماء، بغير ميثاقٍ أحدي،
أن ينحطم قائم عمرها،
ويُخمَد بارق سنا أنوارها،
وكادت الأرض تتداعى خرابًا منثورًا،
منكوب المقام والمسعى،
وأوشكت الأرواح [= الآلهة] أن تتردى،
في مهاوي الفناء وتصير إلى العدم،
وكاد ينقطع جريان الجداول،
ويجفُّ الينبوع والساحل،
وقرب أن يفنى الوالد والمولود،
ويحصد الموتُ كلَّ نسمة حيَّة،
ثم كادت الملوك تزول عن عزيز المجد والسطوة،
وتسقط عن عروشها أممٌ وتيجان،
[= فلا بد من مرجعية قانون أحدي؛ ذلك أنه: –]،
لا يستوي للجليل عود أخضر، إلا كان الذل منبت جذوره،
ولا يرتفع للعالي ارتفاع،
إلَّا بانحطاط أسفله الخفيض،
ولقد جاء على الملوك حِينٌ من الدهر،
كانوا يُلقِّبون أنفسهم بألقاب، من نحو:
«المتواضع»، «الفقير»، «الزاهد المسكين»،
أفما رأيت أن كل جليلٍ

مستنبت جذوره في ذلِّ الحضيض؟!
أليس صحيحًا أن الذل
مدار تراجع إليه أجل الدوائر؟!
إن الساعي إلى قمة المجد،
خاسر — لا محالة — رفيع مقام المجد،
فلا تكن تاجًا ذهبيًّا مُرصَّعًا باليواقيت،
وكن حبة رمل منسحقة في جوف التراب.

الفصل الأربعون

تدور الدائرة في [الطاو] خلافًا للمشهود،
في دوران الدوائر؛
فمن بدء ترجع،
وإلى بدء تعود،
تواصل دائرة الرجوع،
للطاو دقائق إشارات تؤثر الرجوع،
إلى مقام الذلة والانكسار،
موجودات الدنيا مبدؤها عين الوجود،
والوجود من عدم.

الفصل الحادي والأربعون

[... الناس في فهم الطاو ثلاثة أصناف:]،
العبقري، الذي
تفتحت مداركه
على دقائق أسرار الطاو،
فصار وعيه،
هاديًا لأفعاله.
[... والثاني:]،
النجيب، الذي
أنصتَ، فتيسَّر له من الفهم شيء،
وانغلقت عنه أشياء.
[... والثالث:]،
السانج، الذي
احتجبت عنه المقاصد،
فتسفهت أحلامه؛
فهو لا يذكر الطاو إلا هازئًا ساخرًا،
لكنها السخرية التي استصفت للطاو مشربه،
فأزالت عنه كدر شوائبه،
فمن ثَم جرى القول القديم،

من الأزل؛[١]
بأن أوضح سبل الطاو،
هي أخفى سراديبه،
وساطع أنواره،
هو أحلَك دفائن أسراره،
مسعى الرجاء في تطلعات آماله،
هو مسرى الخذلان في ذلِّ نكوصه،
أسهل دروبه هي أوعر المسالك إليه،
وأعلى مقامات نعوته،
هي أدنى ينابيع خصاله،
أكرم صفاته لا تفي بأدنى حد الكفاية،
وأصلب عزائمه إرادة مهزولة،
دبَّ في أوصالها الوهن،
صادِق إخلاصه هو أخبث سرائره،
وأطهر أثوابه هو أردأ أسماله،
أقْوَم أركانه ركامٌ مائلٌ،
وأعدل أحكامه ظلمٌ جائرٌ،
أثمَن طاقاته هي أقصى مبلغ جهده،
أجهر أصواته هو أخفت رجع أصدائه،
أعظم دلائله إشارات زائلة بغير أثرٍ،
[... ذلك هو شأن الطاو دائمًا:]،
فهو مستورٌ بأبطن بواطن الخفاء،
محجوب الاسم، خفي الإشارة،

[١] أخطأت إحدى الترجمات الإنجليزية في نقل هذه العبارة؛ ذلك أن المترجم لم يفهم المعنى الكلاسيكي لكلمة chien yen التي يُقصد بها معنى «قيل قديمًا ...» ونقلها بوصفها اسم علم، هكذا ... «وحسبما جاء على لسان تشيان يان ...» وهذا خطأ جسيم، والصحيح ما أوردتُه في الترجمة العربية التي بين يديك. راجع النسخة الإنجليزية: D.C. LAU TZU TAO TEI, Penguin Books: 1963, p. 102. (المترجم)

ليس سوى الطاو [... الذي بهذا المعني]،
هو الذي أبدع الأشياء كافة،
ثم أتمَّ كل شيءٍ على وجه الإحكام.

الفصل الثاني والأربعون[١]

(١) يفيض الوجود، من الطاو،
كيانًا واحدًا [... بادئ الأمر]،
ويتفرَّق الواحد،
وجهين متقابلين،
ثم يأتي كيانٌ جديدٌ آخَر،
ومن هذا الأخير،
تتكثر كثرة كل شيء؛
ففي الأشياء جميعًا،
اثنان متقابلان [... الذكر والأنثى]،
ثم إنهما يستدمجان،
فيلتئم منهما كيانٌ واحد.
(٢) لم يبغض الناس في حياتهم شيئًا
قدر بُغضهم ألقاب تحقير الذات،
تلك التي تُقال على سبيل التواضع،

[١] يرد هذا الفصل في النسخ الأصلية مثل باقي الفصول مندرجًا في وحدة نصية متماسكة ومترابطة في سياق يتسلسل فيه المتن عبر فقراته في كتلة واحدة، بغير تقسيم فرعيٍّ في أجزاء أو عناصر، لكني وجدت أن بعض شروح التحقيقات تقوم بتقسيمه إلى جزأين، بدعوى أن النص هنا، يتناول قضيتين مختلفتين، الأولى قضية فلسفة جدلية؛ والثانية تتعلق بتفاصيل الواقع الحياتي الملموس والمعاملات الجارية، فمن ثَم رأيت تقسيم المحتوى على هذا النحو زيادة في الوضوح، وعونًا على استجلاء المعنى. (المترجم)

مثل: «المسكين» و«يتيم الزمان»،
«فقير العصر والأوان»،
ثم إن الملوك يتخذونها، رغم ذلك، ألقابًا رسمية؛
[... فلذلك أقول:] قد يزيد الشيء بما نقص منه،
وقد ينقص ويتلاشى بما زاد فيه؛
[... ذلك أني] ما تعلمت إلا بما زاد لديَّ،
من فيض المعرفة،
[... وإذا كان لي أن أنصح بشيء في هذا المقام،
فلن أزيد عن أن أقول:]،
«الطغيان بدايته غلبة بالقهر،
وعاقبته سوء الخاتمة.»
فذلك هو المبدأ الأول الذي
أتخذه في باب العلم دليلًا ومرشدًا.

الفصل الثالث والأربعون

أذلُّ الأشياء خضوعًا،
أصلبها مناوأة وعنادًا،
ألَيَنُ الأشياء، أقدرها على النفاذ في قلب الحجر الصلب،
ثم إنه لا ينفذ إلى أدقِّ المسام إلا ضئيل الفراغ،
فمن ثَم، وجدت برهان الحقائق،
واعتبرت بأحسن العبر؛ ذلك أنِّي،
سأدع الأمور تجري وشأنها؛
فالفوز دائمًا في مطاوعة المقادير،
والعبرة دائمًا فيما تخطُّه يد الزمان،
وليس فما ينطبق به الفم واللسان،
ألا إن القليل جدًّا من الناس،
هم الذين يُبصرون باطن أسرار تلك الإشارات.

الفصل الرابع والأربعون

أحياتك أحبُّ إليك،
أم شهرتك الذائعة؟
ما الأجدر باهتمامك، الحياة أم المال؟
أيهما أعظم خطرًا: المكسب أو الخسارة؟
إن البخل الزائد مسلكٌ تتهدَّده،
نوازع التبديد والإسراف،
وشطط الاكتناز مجلبة للخسران.
[... ومن ثَم]،
فالقناعة تغني عن سخرية المصائر وذلِّ الأقدار؛
وفي الاعتدال [... بين التقتير والإسراف]،
نجاة من الخطر،
ومستقر حياة هادئة،
ناعمة بطول البقاء.

الفصل الخامس والأربعون

كادت الكفاية تُشبه النقصان،
غير أن عطاءها موصولٌ أبدًا.
وأوشك الاكتمال أن يُضاهي امتحاء الحال،
لكنه موفور المنال للطالبين،
مديد الاستواء،
كدوران دائرة الانحناء،
وشدة الذكاء،
كمنتهى البَلَه والغباء.
قوة الفصاحة والبيان،
كمعقود العقدة في اللسان.
إن نسمة دافئة تُذيب جبالًا من جليدٍ،
وجلسة هادئة تكتم لفح القيظ،
ثم إن صرف الخاطر عن التدبير،
[... ترك الأمور لطبائعها = التسليم بطبيعة الأشياء]،
يُقيم الإنسان سيدًا،
فوق ملكوت الدنيا بأسرها.

الفصل السادس والأربعون

إذا صلحت سياسة الممالك،
[= إذا سلكت وفق منهج الطاو]،
صارت الجياد تحرث الأرض وتحصد الغلال؛
فإذا فسدت السياسة وحادت عن الطريق القويم،
أصبحت الأفراس تذهب للحرب،
وصغارها يتعلَّقون بذيولها؛
إنه لا جريمة أبشع من الجشع والفساد،
ولا كارثة أفدح من الطمع الجائر،
ولا مصيبة أنكد من نهمة لا تشبع؛
فلذلك، كانت العفَّة عين القناعة،
وكانت القناعة مددٌ من الرضا إلى أبد الآباد.

الفصل السابع والأربعون

يستطيع المرء أن يعرف أحوال الدنيا،
دون أن يتخطَّى عتبة بيته،
ويمكنه أن يستطلع حركة الأفلاك ومدارات الكواكب،
دون أن يفتح نافذة،
أو ينظر إلى الفضاء،
وكلما أبحر السالك يُريد علمًا،
تناءى عنه شاطئ الغاية،
[= من مشى كثيرًا، عرف قليلًا]،
إن الراسخين في الطاو،
يدركون بغير استقصاء،
ويبصرون بغير مشاهدة،
ويبلغون قصد الغاية وعين المراد،
دون أن يتحرك لهم ساكنٌ،
أو يخطر لهم خاطر السعي والاشتغال.

الفصل الثامن والأربعون

طالب العلم مشغول بسعة الاطلاع،
في كل يوم تزداد حصيلة معارفه؛
وطالب الطاو مشغول بصفاء الوعي،
في كل يوم يصفو كدر خاطره؛
فهو في خاتمة المطاف
بالغ حد التبرُّؤ من منازعة الطبائع،
[= واصل إلى درجة التسليم المطلق]،
فيثبت له، هنالك، راسخ المقام،
حتى يصير إليه زمام كل الأفعال،
ثم إن الدنيا تنقاد لَمَن زهد في تصريف أحوالها،
فأما مَن نازع الطبائع،
فسيرى منها وجه العناد،
ويقف له كل شيءٍ منها بالمرصاد.

الفصل التاسع والأربعون

العاقل مَن تنقى خاطره عن نوازع الأنانية؛
فهو يطلب حيث تطلب الناس،
ويريد بمراد نفوسهم،
ثم إنه كريمٌ مع الكرام،
وكريمٌ أيضًا مع اللئام؛
فهو على ذلك، حتى يطوف به الأثر الجميل بين الناس؛
بَيْد أنه مُؤتمَن مع الأمين،
ومُؤتمَن كذلك مع الخائن،
فهو على ذلك حتى يطيب عَرفُ إخلاصه في كل مكان،
لا بد للقديسين [الطاويين] الذين صارت لهم
سطوة الولاية فوق الممالك،
من أن يخلِّصوا النفس من أكدارها،
فلا تسنح في النفوس إلا سوانح الوجدان الطاهر،
إن الناس تقتدي بكلمة ينطقها القديسون،
وتهتدي بإشارة من نهج شعائرهم،
فلا بد للعاقل [... الطاوي]، أن يسلك مع الناس
على نحو ما يسلك مع طفل في براءة التكوين؛
احتجب عنه العلم،
وانغلقت دونه الإرادة.

الفصل الخمسون

الناس في خطِّ البقاء على ظهر الحياة
ثلاثة أصناف:
الصنف الأول: المعمرون.
الصنف الثاني: قصيرو العمر.
وثالثهم: الحريصون على البقاء،
الذين أذهلهم الحرص على الحياة،
فتأرقت خواطرهم، فماتوا قبل الأوان.
لكن لماذا يدركهم الموت،
وهم الحريصون على الحياة؟
لأنهم تجاوزوا الحدَّ، حتى أسرفوا في اختراع أساليب النجاة،
وكنت سمعت القائل يقول:
إن المنعَّمين بطول البقاء [... الحريصون الأذكياء]،
لا يهابون أن يلاقوا في طريقهم، إذا مشوا،
نمورًا ولا أسودًا [= نمرًا أو وحيد القرن]
ولا تمسهم الحِراب، إذا حاربوا، بأدنى أذى؛
فلا النمور تتنمر بهم،
ولا الأسود تنشب فيهم الأظفار،
ولا الحراب تنوشهم بقاطع نصالها،
فكيف؟ ولماذا لا تفتك بهم كل تلك المهالك؟
لأنهم جبنوا عن اقتحام مواطن الهلاك،
وجردوا نوازعهم عن ملاقاة وجه الخطر.

الفصل الحادي والخمسون

الطاو هو الذي أحيا حياة كل شيء؛
فالطاو مبدع كل الموجودات،
والفضائل منبت نمائه الوافر،
جسومه المتعينة هي رسومه البادية للأنظار،
وواردات أحواله هي علة بلوغه تمام كماله،
[... فلهذا فـ...] ما من شيء إلا يعظم سامق قدره،
وما من شيء إلا يحفظ جلال فضله،
وما كان ذلك بسطوة الأمر النافذ،
الذي تذل له رقاب الخضوع،
وإنما بجريان الفطرة في الطبائع،
وغلبة سرمد الطبع المعهود،
فلهذا كان الطريق [... الطاو]،
واهب الحياة لكل شيءٍ،
فهو القائم بقيومية الولاية لكل شيء،
والعناية بكل شيء،
والحماية لكل شيء؛
يمد كل الأشياء بمدد ينتعش به الأجل،
ويُسبل على كل شيء أستار الوقاية،
ثم إنه يحيي الحياة، ولا يتسلط على الحي بالجبروت،
ويمد يد العون؛ فلا يكترث بمَن شكر وحمد،

أو سخط فتنكَّر وجحد،
يتصدر عظيم مقام الوجود؛
فلا يُملي مشيئة بسطوة القهر،
فوق هوى الأهواء وقصد المقاصد؛
فذلك هو المسمى،
بأمجد مجيد النعت الذي،
يقصر عنه الوصف،
لاحتجابه بأبطن حجب الإشارة.

الفصل الثاني والخمسون

لكل الأشياء التي تحت السماء،
نقطة بدء أول،
فهذه النقطة أول أصل الأشياء؛
فمن وقف على مغزى الأصل الأول [= الأم]،
انفتحت له أبواب الباطن [= الابن]،
فإذا أحاطت المعرفة بكل دقائق الباطن،
امتلِك زمام الفهم ناصية الأصل الأول،
ونجا نجاة الأبد.
أغلِق أبواب الحس [= أعضاء الحس]،
ومشارب المعرفة،
تحفظ باطنك من تشوش الخاطر،
وتأمن لواعج الكرب مدة حياتك،
أو افتح بابك،
لوارد ما احتجب عنك،
وتقلَّب في ساحة شغلك الشاغل،
واتبع في اشتهاء قصدك كل مسعى،
تكتنفك البلايا،
فلا يبرح عنك سقمك،
ولا يشفيك دواء،
[...]

مراقبة دقائق الأحوال،
مما لا تقع عليه الأنظار،
أمارة من أمارات جلاء الأبصار،
ومقامك في ذل الخضوع،
جسارة.
فاقتبس قبسًا من أنوار الطريق [الطاوي]،
والحظْ تجليات البصر،
واحفظ نفسك مما يوردك موارد المحنة،
ترسخ بك رواسخ الفهم [... الطاوي]،
ويثبت لك دوام شهود الطريق.

الفصل الثالث والخمسون

حتى أقل قدرٍ من البصيرة،
لا يشجعني إلا على السير،
في أوضح مسالك الطريق،
بعيدًا عن التواءات الدروب الجانبية؛
فليس أسهل من طريقٍ قويم.
إلا أن بعضًا من الناس،
يهوى السير في منعرجات الدروب،
[...]
[... لو تأملت لرأيت]،
قصور الأمراء والأباطرة،
مُشيَّدة في غاية البهاء والجلال،
متناسقة البيان، رائقة المنظر،
لكن الحقول والمراعي،
مُجدِبة كالحة شوهاء؛
وخزائن الغلال، جدران مغلقة خالية،
في حين أن الأردية الملكية الفاخرة،
تنسدل فوق أعطاف الجلال الأفخم،
في أروع طرز، وأثمن يواقيت؛
بسيوفها الذهبية المدلَّاة،
فوق أبدان متنعمة ببهجة الأيام،

ورغد العيش؛
فأولئك هم كبار رءوس النهب؛
شيوخ المناسر، وزعماء اللصوصية،
فدربُهم حَيْد مائل عن هدى الطريق.

الفصل الرابع والخمسون

لا زوال لما استقر منبتُ جذوره،
ولا انفلات لما عانقته السواعد؛
هي أشياء تتوارثها الأجيال،
ويسير بها موكب الأحفاد في إثر الأجداد،
مسيرة دهريةٌ لا تتبدل،
مسلك لخلق فاضله؛[1]
فاتخذ لنفسك معيارًا تصلح به شأنك؛
ترى الناس سمت خلق واحد،
من معدن أصفى، ومشرب أنقى وأطهر؛
ثم اتخذه نموذجًا يحتذيه أهل بيتك،
تجد الفضل فيهم بالغًا حد التمام،
واتخذه مرشدًا لترتيب أحوال عشيرتك،
تجد الفضل فيها مكتنفًا كل ساحة؛

[1] لا بد من التذكير، هنا، بأن ما يقصده «لاو تسو» بالفضائل والأخلاق، يختلف عما تُشير إليه الكونفوشية، ذلك أنه يرفض تمامًا مفهوم الأخلاق الكونفوشية (أخلاق النبلاء السادة المهذبين … دعاوى الكذب والنفاق … إلخ)، مفهوم يربط بين نظريته عن الأخلاق في هذا الفصل وتصوراته لملامح نظرية معرفية (سادت كثيرًا في الصين القديمة)، ترى أن إصلاح الفرد لشئونه الذاتية بواسطة السير على نهج الطاو، كفيل بأن يفتح له آفاق الفهم، ويبصره بأنماط السلوك القائمة لدى الفرد والأسرة فالعشيرة والمجتمع بل الدنيا بأسرها؛ فمعرفة الفرد لنفسه هي وسيلته لمعرفة العالم كله من حوله. (المترجم)

واتخذه مفتاحًا للخير في مدينتك،
تجد الفضل فيها رائجًا في كل ناحية،
واتخذه سياسة تسوس بها،
شئون مملكتك المترامية تحت السماء،
تجد كريم الفضائل في كل ربوعها؛
لذلك فمعيارك للحكم على أخلاق الفرد،
هو مجموع فضائل الفرد نفسه؛
ومعيارك للحكم على أخلاق أسرتك،
هو مبلغ الفضائل السائدة فيها؛
ومعيارك للحكم على أخلاق عشيرتك،
هو ما استقرَّ فيها من فضائل؛
ومعيارك للحكم على أخلاق مدينتك،
هو جملة الفضائل المعهودة فيها؛
ومعيارك في مراقبة أخلاق مملكتك،
هو المبدأ الأخلاقي الذي جرت عليه طبائعها.
فما وسيلتي إذن،
في معاينة الطيب والخبيث،
من أحوال الدنيا؟
فالوسيلة في ذلك،
هي عين ما تقدَّم لك ذكره آنفًا،
[... فتأمل ذلك!]

الفصل الخامس والخمسون

مَثَل الفرد الفائق تمام الوصف،
بما حاز من وافر مدد الأخلاق،
كمثل طفل طاهر في براءة الميلاد؛
لا تتخطَّفه مناقير النسور،
ولا تنهشه مخالب الافتراس،
ولا تناوشه أذناب الأفاعي؛
كمثل طفل في المهد،
غض الأطراف، طري القلب،
لكن أصابعه راسخة القبض بإصرارٍ،
كمثل طفلٍ [... قبل تمام النضج]،
يُدرك أشواق الذكر للأنثى،
لكن إطلالة شبقه الأولى،
[حرفيًّا = انتصاب قضيبه الذكوري الصغير][١]

---

[١] هكذا تَرِد الترجمة الحرفية للنصِّ الأصلي، لكني اخترت ترجمة تفيد اشتمال المعنى للجنسين، خصوصًا في فلسفةٍ تُمجِّد الرمز الأنثوي، ولو أن الإشارة الواردة في المتن بما يفيد اشتراك العناصر الغريزية عند الجنسين في دلالة القضيب الذكوري، تتفق في جانب كبير منها مع مقولة «فرويد» في نظرية التحليل النفسي، ولا أقصد من هذه المقابلة بين الطاو واجتهادات نظرية التحليل إلى إثبات سابق الحكمة والبصيرة الطاوية ورسوخ حكمتها على الزمن، لكني فقط، أريد الإشارة، على نحوٍ عابر، إلى أن بعض الاجتهادات النظرية الحديثة، تحتفظ بعناصر أسطورية وبناءات سحرية قديمة جدًّا. (المترجم)

علامة على وافر مكامن طاقته؛
كمثل طفل ينفطر بكاءً،
وترتج الأسماع لصراخه؛
فلا يذبل جهير صوته،
ولا تنثلم حدة نيرانه،
[... فذلك] بما انتعشت روح حياته؛
فاعلم أن موفور طاقته،
وقوة عنصر حيويته،
أمور يجري بها سريان الطبع في الأشياء؛
فإدراك الطبائع هو عين البصيرة.
إن الإسراف في اشتهاء لذَّة الحياة،
استعجال لشؤم العاقبة،
والتسلُّط بالقهر على إدارة الروح،
استكبار مرذول،
يضيع بهجة الروح،
ويزيغ فطنة الرأي،
ألا إن كل بالغٍ مديد القوة والاقتدار،
ناكص إلى حضيض الوهن والانكسار؛
فذلك مما يخالف معهود الطريق [... الطاو].

الفصل السادس والخمسون

من عرف الطريق [... الطاو]،
أمسكَ لسانه عن هذر القول،
فما عرف الطاو
مَن تبعثر الكلام بين شدقيه،
يثرثر كيف شاء.
[... إن الطاوي الحقيقي]
يقطع موصول الصلة،
ويسدُّ أبواب الوسيلة؛
فلا هو في أذن السامع،
ولا في فم الناطق نطقًا؛
قد ثلمت نصال عبقريته،
[... فلا يتفرد دون الناس بميزة]،
فصفَّى كدر خاطره،
[... مما كان يقلقه من مشاحنات مع الآخرين]،
وانطفأ وهج بروقه،
واندثر في رديم التراب كنز يواقيته؛
فذلك مما جرى به الوصف بأنه،
الانمحاق في كل الكل،
[... تعين الفرد بالمجموع]،
فلذلك، فلا هو الداني القريب،

[... فيغشاه ما يغشى الناس في قربهم]،
ولا هو القاصي البعيد،
[... فيتفرَّد بالبعد، وينتعش إحساسه بذاتيته]،
لا ينفعه أحد بنفع،
ولا يؤذيه ضار بضر،
تناءت مرتبته عن كريم الإجلال،
وتنقت هيبته عن وضيع الإذلال،
فلهذا، تمجد غاية المجد،
بين الناس أجمعين.

الفصل السابع والخمسون

في الطاو صفوة التدابير وأدقُّ المعايير النافعة،
في سياسة شئون الممالك؛
وفي فنون الحرب، طرائق متنوعة للقتال،
تضمن تحقيق النصر؛
وفي [... فلسفة] العمل بمقتضى أحكام الطبيعة،
ما يصلح لإدارة شئون الدنيا بأسرها،
فما السبيل لبلوغ تلك الغايات؟
فانظر الآتي تبلغ غايتك:
[... اعلم أنه] كلما زادت النواهي والتحريمات،
في مملكة من الممالك،
ازداد الناس بؤسًا وفقرًا؛
وكلما حرص الناس على اقتناء أسلحة حادَّة النصال،
تفشَّت الفوضى والجريمة،
وكلما ازداد الناس فطنةً وذكاء،
تعدَّدت ألاعيب الدهاء والغش والحِيَل الشيطانية؛
وكلما صارت اللوائح القانونية أكثر صرامة،
وتغليظًا للعقوبات،
استفحلت الجريمة وتعددت وقائع الجنايات؛
فلذلك يقول العاقل:
«لن تنزع بي إرادة نحو أي شيءٍ»،

[... بل سأدع الأمور لمواقيتها]،
فالناس هم الذين ستتبدل بهم الأحوال حتمًا،
ولئن لبثت بمقام السكينة
[فلعلها تخمد ثائرة كل اضطراب]،
فستستقيم أحوال الناس عن عوجٍ،
ويرجع إلى جادَّة الصواب كل مَيْلٍ؛
ولئن أحجمت عن التدخل فيما يناقض مساق طبع الطبائع،
فسيطيب العيش،
وتزدهر الحياة لكل حيٍّ؛
ثم إني سأحفظ أهواء نفسي،
عن أن تسنح فيها غوايات اشتهاء؛
وحينئذٍ، تصير كل نفسٍ،
نقيةً نقاء طهرٍ،
طاهرةً، طهارة قبسٍ من نور.

الفصل الثامن والخمسون

إذا كان الحاكم طيبًا متسامحًا،
صار الناس أغبياء ساذجين؛
فإذا كان فظًّا قاسيًا،
ألفيت الناس خبثاء مُحتالين،
[... فتأمل ذلك]؛
إنها لا تأتي النكبات،
إلا وفي أذيالها بشائر الفرج؛
ولا يرد وارد السعادة
إلا جالبًا، طي أكمامه، علقم الشقاء؛
[... هي دائرةٌ أزليةٌ دائمة الدوران]
فمَن ذا يعرف حدَّ النهاية؟
مَن ذا يملك معيارًا،
نعرف به تبدلات حظوظ النفس من تلك الأشياء؟!
[... فافهم ذلك!]،
الاستقامة وصف لا يتسرمد؛
فإن مديد الاستقامة يتبدَّل يومًا،
عوجًا شائهًا؛
والصلاح، لا بد منقلب يومًا،
إلى شر الفساد؛
وقد طال على الناس أمد الحيرة،

وغاب الفهم في غياهب الغفلة؛
لذلك، فالحكيم العاقل
هو مَن استقامت وجهته بغير تزمُّت،
واحتدَّت نصال إرادته؛
شحذًا للعزم،
لا جزرًا للرقاب؛
قد تنزه نعته [... عن كل حدٍّ أقصى]،
فلا هو حائز أتم السجايا،
ولا هو موصوم بأخسِّ الخصال؛
ساطع أنواره ضياء مشرق،
في جلاء البصيرة،
وليس وهجًا باهرًا،
يخطف الأبصار.

الفصل التاسع والخمسون

اعلم أن الادخار
أفضل مسالك الطريق؛
سواء كنت ترفع قربانًا للسماء،
أم تقوم على شئون الممالك،
فوق الأرض؛
فذاك هو المسلك الذي
يهدي خطاك إلى أول الطريق،
ويمنحك السبق والريادة،
فلئن كنت الأسبق؛
فالمثابرة دأبك،
فإذا ثابرت،
تذلَّلَ كلُّ صعب،
فإذا انمحقت الصعاب،
اتقد باطن قدرتك وَقْدةً،
تخفي أسرارها عن كل ذي فهمٍ،
فإذا كمنت طاقتك عن كل رصدٍ،
ملكت زمام أمرك،
وانعقد بك رجاء مملكتك؛
وحينما يدعوك داعي الحفظ والرعاية،
لن تجد أطوع ليديك شيئًا،

مثل هذا الواجب؛
ثم إن مَن زال به بلاء الأوطان،
وأُقيلَت به عثرات المحن،
دام له دائم الوقت والزمان،
خالدًا سرمدًا؛
فذلك مما يوصف في باب الوصف،
بأنه [... الادخار]،
الأساس الراسخ،
والبناء الرصين،
الذي ينبني به مشيد العمر [... الطاو]،
الباقي بقاء الأبد.

الفصل الستون

مَثلُ تدبير شئون مملكة مترامية الأطراف،
كمثل الطاهي يقلي سمكةً رقيقة الجلد،
في إناء شديد الغليان،
[= إنْ أمهلها احترقت، أو عاجلها تقطعت]
فاعلم أن منهاج الطريق،
في سياسة الدول والممالك،
يبطل كيد الشياطين؛
ثم إنه فيما يبطل كيد الشياطين،
لا ينزع الكيد من جوف الشر،
وإنما يحجب عن الناس أذاه،
وفيما يحجب عن الناس كيد الكائد،
يحفظهم، كذلك، من زلل القديسين الأطهار،
فلما كان خبيث الروح وطاهرها،
[= الجن والملائكة]،
لا يملكان أن يضرَّا الناس بشيءٍ؛
[... وقد أدبر أمرها]،
فقد أقبل قابل النفع،
وزاد مزيد الخير والفضل،
حتى عمَّ أهل الممالك جميعًا،
دون أن يستثني منهم أحدًا.

الفصل الحادي والستون

على الممالك الكبرى ذات القوة والسيادة،
وبهاء الملك والسطوة والسلطان،
أن تتواضع حتى تحاذي أدنى مقام،
بين البلدان؛
فهي بمثابة البحر الكبير الواسع،
فكأن البلاد تعاريج أنهار تركض،
نحو أدنى مصابها؛
وكأن الممالك شطآن بحر،
تراجعت فتدنَّت حتى استوت،
عند أسافل مصبِّ الأنهار؛
فلا بأس من ضعة تذل لديها الذرى،
ولا خير من تدنٍّ تبوء إليه العوالي،
[حرفيًّا = ولطالما استكانت الأنثى وخضعت
لامتلاك سطوة آجلة]
ومن ثَم، فوقوف الممالك العظمى،
موقف التواضع إزاء البلدان الصغيرة،
برهان للثقة،
ثم إن التقدير بذات المعيار،
بإظهار وافر الاعتبار،
نحو طواويس المجد العالي،

أباطرة التاج وسادة الممالك،
خليق بعقد مواثيق الأمن والاستقرار؛
فلذلك، يصير ما بين الطرفين
مساجلة في تباين الثقة؛
فهذا متوسِّلٌ بخفيض جناح العزة،
وبطلبه آخذ؛
وذاك مستوثق بجناح التوقير،
ولشرف عزته مقيم؛
ثم إن الممالك ما فتئت تسعى لَمَن يمشي في ركابها،
والنصرة مبتغاها في كل حالٍ؛
وصغار البلدان ما برحت تتطلع لَمَن يحميها،
والأمن رجاؤها في حينٍ بعد حين؛
[... وباستدامة الاحترام المتبادل بينهما]،
فكلٌّ بالغٌ مبتغاه،
غير أن الوقوف موقف التواضع،
هو أجدر ما ينبغي
ألا تحيد عنه الممالك كلها.

الفصل الثاني والستون

كان الطاو،
ومن البدء إلى الأزل، يكون،
مطيَّة الراكب،
ومحط الراحل؛
حصن الرضى للصالحين،
وأمل المثاب للظالمين،
[...]
الكلمة الطيبة تطوي لك الأعناق،
في تقديسٍ وإجلال،
المعاملة الكريمة تُضيء أنوار محبتك،
في القلوب،
فيتجلى باهر مجدك للناظرين،
ويطيب بك مطاب الذكر،
في أسماع الذاكرين؛
أَقِلْ عثرة مَن أساء،
ولا تخاصم مَن لم يتقِّ الزلل،
فما الذي تجنيه من اجتنابك إيَّاه؟
[... ما ضرك لو هديته للرشاد (... الطاو)؟]
ثم إن ملك الملوك،
يأتي في بهاء الملك،

يتقلَّد تيجان العرش،
ورجال البلاط بين يديه صاغرون،
ويمضي حفل التتويج في أبهى زينة؛
تنبسط الولائم،
وتتناثر العطايا الملكية الثمينة،
فوق الرءوس؛
غير أن عطاء الطريق،
أسخى من كلِّ عطاء،
وأذخر من كلِّ كنز،
فما الذي أبقى الطاو ذخرًا على المدى؟
أما دريت أنه مدد للخير،
بمزيد الخير،
ومثاب العفو
عن الآثمين؟

الفصل الثالث والستون

اغلل يدك
عن أن تفعل ما أنت فاعل،
ففعلك، لا فعل.
احفظ خاطر قلبك،
أن يسنح فيه شاغل يشغلك،
فمبلغ همك، ألا تهتم.
انزع من فمك،
مستساغ اللَّذة،
وقابض المُر،
فمذاقك، لا مذاق.
أرأيت
لو جعلت القليل كثيرًا،
والصغير كبيرًا،
وجازيت المسيء إحسانًا،
[... أما كان ذلك يزيدك استبصارًا؟]؛
إنما تُجتث الصعاب في بدء نبتها،
وتبدأ صروح الهمم والآمال الكبرى،
بوثبةٍ من وثبات الخاطر؛
إنه ما صار الصعب صعبًا،
إلا لأن السهل كان أول مبتدا إنشائه؛

فذلك، لا تبلغ عظام الأمور،
غاية المرتقى،
إلا بما ابتدرت من أدنى خطى،
في مبتدا تعينها،
ثم إنك تجد العاقل،
في حال التواضع أبدًا،
بينما حظوظ المجد،
تسلك إليه كل سبيلٍ؛
[...]
الوعد السهل،
مشقة عند الوفاء،
مَن رأى الأمور في مرايا اليسر،
باغته العسر في أنكد خبايا المقادير؛
فلذلك، ينظر العاقل مليًّا في وجه الصعاب،
ثم إذا احتدَّ منه البصر،
انجلت الحيرة وسقط القناع؛
فزال كل كدر،
وانفرج كل كرب.

الفصل الرابع والستون

ما أطوع الأمور لبنانك وهي في مستقر الحال،
وما أيسرها على التدبير، وهي في بدء تعينها؛
ثم ما أحطمها وأقلها صبرًا على الخطر،
وهي في هشاشة الضعف؛
بل ما أسرع تلاشيها وفنائها عن قيد الوجود!
وهي، بعدُ، أضأَل من خردلةٍ متناهية الصغر؛
أضأَل، حتى، من أن يصفها الوصف،
أو تلحظها العين؛
صُدَّ عنك الخطر،
قبل أن يحين بك الحين؛
واحزم أمرك،
قبل أن يتفرق بك شتات الحال؛
إن الشجرة السامقة،
تنبت من بذرة ضئيلة؛
والبناية الطالعة للسحاب
تتأسس على رمالٍ وحصى؛
وطريقًا مقداره ألف لي [= ألف ميل]،
يبدأ بخطوة واحدة؛
اصنع صنيعك الذي تحاد به الطبائع،
تفسد من صنيعك الأشياء؛

تسلط بسطوة قهرك فوق الرءوس،
تنحطم بك الأعناق،
وتبوء ببطلان؛
لذلك، لا يطيش قلب العاقل،
فلا يفشل سعيه؛
ثم إنه لا يقيد مراد النفس،
بما لا ينبغي له،
فلا يحزنك فقدٌ،
ولا يصيبه خسران،
قد نظرت فما رأيت أغرب ولا أعجب
من صنيع الناس وأفعالهم،
فما يكاد يبلغ بهم القصد منتهى الغاية،
حتى يخيب رجاؤهم؛
وما يكاد يتمُّ لهم مسعًى،
حتى تسقط حظوظهم؛
إن استدامة الحذر،
من البدء إلى الخاتمة،
وقاية من الخسران؛
ما كانت للعاقل أمنيةٌ،
سوى أن تزول عنه الأماني؛
وما سنحت له،
إلا رغبة الحيد عن كل الرغبات،
ولا تحصلت لديه معرفة،
إلا فيما زهد الناس فيه من العلوم،
ثم إنه يُصلح بعلمه،
كل ما أفسده الناس،
ومراده في كل ذلك،
تبصير معميات الأفهام،
كي تلحظ مدارج السنن الطبيعية،

التي تجري كل الأشياء بمقتضاها؛
فمَن وعى وأدرك
تبرَّأ من معاندة الطبائع.

الفصل الخامس والستون

لم يكن العالمون الحكماء
شيوخ الطريق [... الطاو]،
فيما سلف من الزمان،
يتخذون الطاو
سبيلًا لإيقاظ الفهم،
وتهييج كوامن الفطنة لدى الناس،
بل كانوا يحجبون به الأفهام،
فيصدُّون عن خبث القرائح،
اتقاءً لصولات الذكاء،
وشرور العقل النابِه،
إنه ما استعصى إخضاع شعبٍ،
إلا بما حاز من عبقريةٍ ودهاء ونبوغ؛
فلهذا، لا يتسلَّط سلطان الحكمة،
إلا ابتُليت الأوطان بالمحن والكوارث،
ولا يسلك السالك
ببراءة ساحة الوجدان،
وساذج القلب الغُفل،
إلا فاضت على البلاد حظوظ الرخاء؛
فتأمل هاتين الدلالتين،
تجد فيهما حدَّ المعيار،

فالزم ذلك الحد،
فهناك أسمى الفضائل،
وأخفى خزائن المعنى،
في خبايا كنز أسرار.
فإذا السر تجلَّى:
لاح طريق لا يطرقه السائرون،
طريق، غير الطريق،
رجوع إلى المبتدا؛
فكل طريقٍ واصلٌ،
وكل خطوٍ عابر،
وكل دربٍ بالِغ
قصد المنى.

الفصل السادس والستون

ما صار البحر مصبَّ أنهار شتَّى،
إلا بما احتشد لديه من دفق الجريان،
وهو في أدنى مقامٍ،
[... فهكذا]، لا يتسيَّد العاقل،
ولا يتقلد سطوة الحكم في الممالك،
إلا بما استنزل نفسه منازل الهوان،
ونطق عنه لسان التواضع والخذلان.
اعلم أنه لا يقود الحشود
إلا مَن سار خلف صفوفها؛
وأن العاقل من إذا
وقف، حتى، فوق الأعناق،
لم تستشعر الرءوس عبء ثقله،
فإذا تقدم الصفوف،
تواثبت في إثره جحافل التأييد؛
فلا معترض ولا ساخط،
فلذلك، تمجده الجموع،
عن طيب نفس،
فلا يسأم منه البقاء،
ولا يبتذله طول الأبد؛
ثم إن العاقل،

لا يطأ ساحة نزاعٍ،
ولا ينزل منزل مشاحنة،
فلهذا، لا تجد له على وجه الأرض خصيمًا.

الفصل السابع والستون

قال قائل الناس:
إن الطريق [... الطاو]،
الذي تحدَّثت عنه،
ليس إلا محض عماء،
مديد الأرجاء؛
فليس له في شاهد الوجود نظيرٌ،
متعين بالحس المادي الملموس،
[... وبالطبع]، فهو محض امتداد
بغير مدى،
لأنه غير متعين
بجرم ماديٍّ محسوس،
أما لو كان متجسدًا،
حاضر الهيئة،
مشهود القناع الحسي الماثل،
لَجرى عليه جريان المقادير
واستهلكته الأوقات،
وصار أضأل من أحقر خردلةٍ؛
ما اكتنزت سوى ثلاثة كنوزٍ باقياتٍ:
أولها: الشفقة في قلب رحيم.
وثانيها: الكفُّ عن الإسراف.

وثالثها: الخشية من استباق الخطى،
[= التنائي عن جموح الوثبة إلى مقدم الصفوف]،
فالرحمة مستهل الشجاعة،
والاقتصاد أول الكرم،
والخشية من استباق الناس،
مبتدأ التسيد والزعامة؛
أما وقد صار الطالب يطلب الشجاعة دون الرحمة،
والتوفير دون السخاء،
والسيادة دون الإيثار،
فما أسوأ العاقبة؛
وقد دنا داني الموت،
وأحدق الهلاك؛
ثم إن وارد الرحمة،
مدد بالنصر في ساحات
الحرب الهجومية،
وأمد بتحصين قلاع الدفاع الراسخة،
وإذا قُيضت السماء،
لذي الشقاء نجاته،
أسدلت عليه ستر الرحمة والوقاية،
وأرخت له عنان البقاء.

الفصل الثامن والستون

القائد المحنَّك
لا يتيه فخرًا بشجاعته،
والمحارب المقتدر،
لا يشتعل قلبه بالغضب،
والبطل المظفر،
الظاهر على عدوه،
لا يتمادى في الفتك به،
ولا يُمعن في القتل؛
والسيد الذي يتخذ عمالًا،
من بين الناس،
يترفَّق بهم، بل يتواضع لهم؛
فذلك مما تواضع عليه النعت
بوصفه الخلق المنزَّه على التنازع والمشاحنة،
وذلك هو ما يصفه الواصف،
بأنه أمثل طرق الاستفادة،
من طاقة عمل الإنسان،
وذلك أيضًا هو الذي
تسمى باسم المطاوعة لأحكام الطبيعة،
فثم هو المعيار،
من آزال الأزل.

الفصل التاسع والستون

داهية الحرب يقول لك:
«لا طاقة لي بالهجوم؛
فإنما أنا مُتعينٌ بالموقف الدفاعي،
وإنه أهون عليَّ
أن أنسحب ذراعًا،
من أن أتقدم شبرًا واحدًا.»
فإذا أصبح الهجوم عبثًا،
والتخطيط ارتجالًا؛
فما ثَم إلا
حشود بغير حشدٍ،
ويد ضاربة بغير ذراع،
واشتباك مع أشباح وهمية،
وسلاح كأنه لا سلاح؛
فليس أفدح من الاستهانة بعدوٍّ.
فاعلم أنه لا يكاد المرء يستصغر
شأن أعدائه،
حتى يضيع كنز يواقيته الثلاث،
[... الادخار، الفضل، الإيثار]،
واعلم أنه إذا ما التقى،
جيشان متكافئان،

عدةً، وعتادًا،
فأشدهما غضبًا وأسًى،
[... بما أجبر عليه من موقفٍ دفاعيٍّ]
هو المنتصر نصرًا مؤزَّرًا.

الفصل السبعون

ما نطق عنِّي البيان،
إلا بما فصح به اللسان،
فانبسط في أودية المعاني،
لفظًا ميسورًا
وانطرح لعزم السواعد،
منهاجًا سديدًا؛
لكن العقول تبلَّدت،
والعزائم بادت؛
فما فهم عنِّي السامع،
ولا تأيد بي المسعى؛
اعلم أنه لا بد لكل قولٍ
من مبتدأ مقال،
يدور عليه الكلام،
ولا بد لكل فعل
من سيد بيده زمام كل الأحكام؛
غير أن أبواب الفهم انغلقت،
لكثرة ما ران على العقول،
من صدأ الجهل؛
فما أقل مَن استفاق لديه الفهم،
وما أنذر مَن تحقق منه الاقتداء،

والتعليم والعمل،
لذلك، يرتدي الحكيم أخشن ثيابه،
ويلتفُّ بأردأ أسماله،
ويطوي بين حناياه
أثمن قلائده،
وأخفى جواهر قلبه.

الفصل الحادي والسبعون

أفضل شيءٍ
أنك إذا عرفت،
وأشرقت فيك تجليّات الفهم؛
تواضعت، فأنكرت،
وأقبح شيءٍ
أن تزعم مع الجهل معرفة،
فإن استطعت
أن ترى القبح عيبًا يعيبك،
فقد برئت من كل عيبٍ،
وقد تنقى كل عاقل،
عن مثل هذا العيب،
لأنه قد عرف الباطل باطلًا،
فتبرأ من البطلان.

الفصل الثاني والسبعون

إذا رأيت الرهبة سقطت
من عين الناس،
وقد استمرأت بطش جلَّاديها،
فاعرف أن مزيدًا من التنكيل
واقع بها، لا محالة،
ولسوف يتنغَّص عيشها،
ويضيق بها المقام في رحب أوطانها،
وينزع وارد الحياة عنها كف العطاء،
ثم إن النفوس لا تتجرع مرارة الذلِّ،
إلا بغلبة سطوة القهر؛
فالعاقل مَن استضاء،
بمعرفة ذاته،
فعاينَ رفيع منزلته،
وسامق قدره،
فلم يستكبر؛
والعاقل مَن عانق لذة المحبة،
في نفسه، لنفسه،
فلم يستأثر؛
[... فمن ثَم]،
انزع عن نفسك

الاستكبار والأثرة،
وأَقِم قيومية المحبة والمعرفة لذاتك.

الفصل الثالث والسبعون

المجترئ بقوة الجَسارة
هالك،
المتريض بملاينة الطبع
محفوظ البقاء؛
كلاهما مقتحمٌ جَسورٍ،
لكن النفع مجلوب لأحدهما،
مسلوب من الآخَر،
[…]
والسماء
حتى السماء،
تبغض ما تبغض،
أيدري أحد
سبب بغض السماء؟
فهو ذا يحار فهم الحكيم،
ويذهل الخاطر،
ويدور مدار ميثاق السماء،
وتجري به سنن الطبيعة،
قانونًا سرمدًا،
فتغلب دون منازعة،
ويتجاوب منها الصدى دون نداءٍ،

يجذب إليها جواذب السعي،
دون طلبٍ،
وتمكر أدهى التدابير،
بقلب تطهَّر من خبث المكائد.
[...]
فكأن السماء شبكة
واسعة هائلة،
امتدادها لا يُحَد،
انتثرت فيها من فيها من الأفق إلى الأفق،
ثغرات ليس لها عَد،
[= لكن مهما اتسعت
الثغرة، فقانون الطبيعة،
«الأزلي» يضبط كل معيارٍ]
فلا تنفذ القطرة،
إلا بمقدارٍ،
ولا ينسرب شيء عبثًا.

الفصل الرابع والسبعون

إذا كانت الناس لا تهاب الموت،
فما جدوى تخويفهم بالموت؟
وهبْ أنهم يخافون الموت حقًّا،
أما كان يكفيك إعدام عُتاة المجرمين،[١]
فتقطع دابر الشر والجريمة؟
كان القصاص قضاءً طبيعيًّا،
جرت به الطبيعة،
وكان هناك دومًا
العاملون المكلَّفون بقطع الرقاب،
فليس لَمَن تسلَّط
بسطوة القوة
أن يرفع السيف
فوق الرءوس؛
فمَن قام مقام قصاص،
كمَن حلَّ محل قاطع الأشجار،

[١] الطريف أن إحدى الترجمات الإنجليزية لم تُحسن قراءة المتن، فعكست المعنى الوارد في هذه الفقرة، فصار كالتالي: «... أما كان يكفيك قتل المجددين المصلحين؟» انظر: ["LAO TZU TAO TE CHING" Translated BY D.C. LAU, Penguin Books, New York: 1963, p. 136]. (المترجم)

دون إجادة،
ومَن همَّ بقطع الأشجار دون درايةٍ،
فنادرًا ما سلم
من قروحٍ داميةٍ،
أو جروحٍ قاتلةٍ.

الفصل الخامس والسبعون

هو ذا تجوع الناس،
بما أثقل كاهلها من ضرائب فادحةٍ،
ولا تُثمر فيهم سياسة،
أو يُرجى لهم صلاح،
لأن كل تصاريف الأمور،
معقودة بيدِ الأباطرة،
ولئن حميت ثورة غضب الشعب،
واستمرأت الناسُ الموتَ والهلاك،
[... فتمردت وأظهرت وجه العصيان]؛
فلأن حياة الأباطرة وحدهم،
صارت أغلى من كل حياة.
وليس أحكم ممَّن هانت عليه الحياة.

الفصل السادس والسبعون

كل حيٍّ رطب لين،
فإذا مات يَبُس وجفَّ،
وكذا النبات غضٌّ طري،
بنضارة الحياة،
وفي الموت يذبل،
فتتصلَّب منه الفروع والأوراق،
فالصلابة والجمود والخشونة،
من الموت،
أما اللين والطراوة،
فمن قوة الحياة؛
فهو ذا لا ينتصر جيشٌ
قوته في مظهر صلابته،
عتاده هو كل عدته،
فما حصدت المناجل،
سوى أزهى وأنضج الثمر،
وما وقع صريعًا،
سوى أعلى أغصان الشجر.
فمآل القوة إلى حضيض الهوان،
وموطن الضعف الذليل،
هو أرفع وأمجد الأوطان.

الفصل السابع والسبعون

أما رأيت وجه الشبه
بين طاو السماء وهيئة القوس والوتر؟
أما رأيت إلى وجوب تخفيض الرمية،
إذا علا القوس؟
وضرورة الارتفاع بها إذا تدنَّى،
مستوى المرمى؟
ألا ينبغي بسط الجذبة،
إذا انحنى قاب القوس جذبًا،
وإشباع الوتر شدًّا،
كلمات تراخت القضية ووهن الساعد؛
فكذلك طاو السماء،
يُنقِصُ من الزيادة،
ليزيد ما نقص نقصانًا،
أما طريق الناس،
فينهك النقصان نقصانًا،
ليزيد ما زاد فوق الزيادة.
فمَن ذا يستطيع
أن ينقص الكثير ويزيد القليل؟
[... يأخذ ممَّن يملك ليعطي مَن لا يملك؟]،
ليس سوى الطاوي،

[... هو الذي يقدر على ذلك].
فلهذا، يجود العاقل بفضله،
ولا يتيه مَنًّا واستكبارًا،
يتمجَّد في معارج الشرف والعزة،
ولا يركب مركب الغرور؛
فهو يتنكَّب عن مظاهر التقديس،
ويحبس كنزه
في محابس الخفاء،
ذلك شأنه المعهود.

الفصل الثامن والسبعون

لا شيء على الأرض أهون من الماء،
ثم إنك لا تجد شيئًا أنفذ،
في الحجر الصلد،
من الماء،
فليس له نظيرٌ ولا بديل
في ذلك؛
أما إن الضعف يغلب القوة،
وطراوة اللين
أقوى من صلادة الصلب،
تلك مقولة يفهمها كل الناس،
لكنَّ أحدًا لا يملك أن
ينسج على منوالها.
لذلك يقول العاقل:
«إن مَن يتحمل إهانة أمة بأسرها،
فهو سيد الأمة كلها،
ومَن تجلد أمام كارثة بكل أهوالها،
فهو ملك ملوك الأرض جميعًا.»
أنصت جيدًا إلى الكلمات،
تجد صحيح اللفظ كنقيضه؛
ذلك أن وجه المعنى الذي يتبدى هنا،

يحجب نقيض الإشارة في الوجه الأخفى،
هناك.
[... دونك فتأمل!]

الفصل التاسع والسبعون

مهما تصالح الخصمان،
تظل في مكنون النفوس،
بقايا عداوة وثارات وضغائن.
صُلح الغرماء،
لا يصفِّي كل الدَّين مرةً واحدة،
فكيف نعدُّ مثل تلك التسوية،
منتهى الخير، وغاية المُنى؟
إن العاقل الحكيم،
لا يطالب بتسوية دَينٍ قديمٍ،
حتى وهو يملك سندات رسمية
واجبة السداد؛
إن الكريم الفاضل،
لَيفعل فعل العاقل الحكيم،
المشار إليه عندك؛
فأما غير الفاضل،
فيسلك سلوك جباة الضرائب،
ووكلاء تحصيل الديون.
إن طريق [طاو] السماء،
لا يحابي أحدًا،
لكنه، مع ذلك،

مدد وعطاء لا ينفذ،
للطيبين المُحسنين.

الفصل الثمانون

ليكن ثم وطن أقل مساحةٍ،
يسكنه شعبٌ أقل عددًا،
ولتكن في كل الحوانيت،
آلات من كل نوعٍ،
تزيد على قدر الحاجة،
وما أجمل أن تحلو الحياة لكل حيٍّ،
مقيم هناك!
حتى يخشى إذا ارتحل،
مات واندثر،
ليكن بحر وساحل،
وسفن راسيات،
ولا بحار أو مسافر.
وفي الخزائن أسلحةٌ مكدسةٌ،
وقد زالت دواعي الحروب والعدوان،
ولتكن شارات تأريخ الحوادث،
عقدًا مسلسلة في جدائل الكتان؛
اقتداءً بسنة الأقدمين في سالف الأيام،
وليكن رغد عيشٍ ولذيذ حياةٍ،
ومآكل ومشارب ورخاء أيام باقية،
ولتكن ثم أوطان أخرى قبالة حدود الوطن،

يُرى منها ما يرى الرائي بأدنى البصر،
ويُسمع منها صوت كل صائت،
ثم يبقى كل مُقيم بأرض هو ساكنها،
فلا غريب يأتي،
ولا يرحل إلى هناك مهاجر،
وليكن ذلك هو دأبهم دائمًا أبدًا.

الفصل الحادي والثمانون

الكلمات الصادقة
ليست جميلة،
والكلمات الجميلة،
لا تقول الصدق؛
لسان الطيبين غير معسول،
وليس في فنون الكلام،
أطلَق من لسان الخبثاء؛
العالِم النابه
لا يحيط بكل شيءٍ معرفةً،
والمتصفح أشتات المعارف،
لم يُدقق، فلم يحدق؛
فلم يبصر ببصيرة العالِم،
العاقل يجود بما لديه،
لأن مودع خزائنه،
هو ذخر عطائه،
وكلما وَهَب اكتسب،
وكلما أعطى
فاضت لديه الودائع،
كلما دار مدار طاو السماء،
دار به النفع لكل حيٍّ،

وامتحى الضر عن كل شيء،
فكذلك العارفون الحكماء،
يسيرون على هدى الطريق؛
عيونهم ترى المناهج،
وقلوبهم تحفظ المواثيق،
بيدهم معيارهم،
وعطاؤهم فيضٌ لكل آخِذ،
وقد صفا موردُهم
وتنقَّى نقاءً طاهرًا
لا يشوبه كدر.


هنداوي